الفصل الأول

مدينة الفيروز

تحركت الأضواء الفسفورية ببطء فوق الشوارع المرجانية، كأنها تنفّس مع تيارات الماء الباردة. كانت مدينة الفيروز تغرق في صمت ثقيل ذلك الموسم، صمت لم تعهده منذ سقوط الزبرجد قبل سبعين موسمًا.

زوسر سبح بقوة نحو المزرعة الشمالية الغربية، ذيله الطويل يدفع الماء خلفه في موجات منتظمة. كان يرتدي درع الحراسة الخفيف المصنوع من ألياف الإسفنج المقوّى، والخنجر المرجاني مربوطًا إلى جنبه الأيسر. منذ ثلاثة مواسم وهو يقوم بهذه الدوريات اليومية، ومنذ ثلاثة مواسم لم يرَ شيئًا سوى الدمار.

حين وصل إلى حافة المزرعة، توقف فجأة.

أسماك القرش كانت هناك.

خمس منها، ضخمة، عيونها السوداء اللامعة تتحرك ببطء بين صفوف نبات البلانكتون الذهبي. كانت تمزق السيقان الطويلة بأسنانها الحادة، وتترك خلفها سحباً خضراء من العصارة تنجرف مع التيار. خلفها مباشرة، ظهرت ثلاثة من أسماك الباراكودا، أنحف وأسرع، تنتظر دورها في الوليمة.

زوسر شعر بالغضب يغلي في خياشيمه. أطلق صيحة تحذير قصيرة، اهتزازات عالية التردد انتشرت في الماء. الحراس الآخرون كانوا بعيدين. كان وحيدًا.

اقتربت منه أقرب سمكة قرش، فمها مفتوح على اتساعه. زوسر لم يتراجع. دفع جسمه إلى الأمام وضربها بذيله في خاصرتها، بقوة كافية لتبعدها بضعة أمتار. ثم استدار بسرعة وسبح نحو المنصة الصخرية القريبة، حيث كانت أجهزة الإنذار القديمة لا تزال تعمل.

ضغط على اللوح المرجاني المضيء.

بعد لحظات، ارتفعت صفارات الإنذار في كل أنحاء القطاع الشمالي. الأسماك المفترسة تفرقت ببطء، غير راغبة في المواجهة الآن. لكنها ستعود. كانت دائمًا تعود.

زوسر بقي في مكانه حتى اختفت آخر ظل في العتمة. ثم سبح ببطء نحو المدينة.

مدينة الفيروز لم تعد كما كانت في أيام أجداده.

الشوارع الواسعة التي كانت تعج بالسبّاحين صارت شبه فارغة. المنازل المرجانية الشفافة، التي كانت تتلألأ بأضواء داخلية دافئة، بدت الآن باهتة. في الساحة الكبرى أمام المجلس الرئاسي، تجمع بضع عشرات فقط من السكان، يتحدثون بصوت منخفض.

زوسر مرّ بينهم دون أن يلتفت. كان يعرف ما يقولونه. كان يقوله الجميع منذ مواسم:

«انتهى أمرنا.»

دخل بيته من الفتحة الجانبية. في الحجرة الداخلية، كانت نِفرِت جالسة قرب النافذة المرجانية، تمسك ابنتها الصغيرة «توت» بين ذراعيها. الطفلة كانت نائمة، رأسها الصغير مستند إلى صدر أمها.

نِفرِت رفعت عينيها حين دخل. لم تبتسم.

قال زوسر وهو يخلع درع الحراسة:

ـ أبعدناهم... هذه المرة.

ـ وهذه المرة القادمة؟

صوتها كان هادئًا، لكنه كان يحمل كل اليأس الذي لم يعد أحد يحاول إخفاءه.

زوسر لم يجب. جلس على المقعد الإسفنجي المقابل لها، ومدّ يده ليلمس خد ابنته برفق. الجلد الناعم الدافئ تحت أصابعه جعله يشعر بشيء يشبه الألم.

قال بعد صمت طويل:

ـ الرئيس دعا إلى اجتماع غدًا... في المجلس.

نِفرِت نظرت إليه بحدة.

ـ هل سيتحدث عن الرداء مرة أخرى؟

ـ نعم.

ـ وأنت ستذهب؟

زوسر رفع عينيه إليها. فيهما كان العزم الذي عرفته منذ أن تزوجا قبل اثني عشر موسمًا.

ـ سأذهب.

نِفرِت ضغطت ابنتها أكثر إلى صدرها. لم تتكلم. لكن زوسر رأى الخوف في عينيها، الخوف نفسه الذي رآه في عيون كل من في المدينة.

خارج النافذة، كانت أضواء الفيروز تخفت تدريجيًا مع حلول الليل المائي. وفي الأعماق البعيدة، كانت أسماك القرش تدور في دوائر بطيئة، تنتظر.

وزوسر كان يعرف أن الانتظار لن يطول.

الفصل الثاني

الدكتور والبحيرة

كانت الشمس في أوجها حين وصل الدكتور فتحي عاطف وزوجته داليا إلى فندق الدولفين. الطريق الأسفلتي أمامهما بدا وكأنه يذوب تحت العجلات، والهواء الجاف يضرب الوجه كأنه خرج لتوه من فرن.

فتحي أوقف الدراجة النارية بصعوبة، ومسح العرق عن جبينه بمنديل مبلل. كان وجهه محمرًا، وقميصه ملتصقًا بظهره.

ـ قلتِ لي إن الفيوم مكان هادئ ومنعش.

داليا ضحكت وهي تنزل من المقعد الخلفي، وخلعت خوذتها. شعرها الأسود التصق بوجهها من العرق، لكنها بدت أكثر نشاطًا منه بكثير.

ـ وأنت قلت لي إنك تحتاج إجازة حقيقية بعد شهور المختبر. ها نحن هنا. انظر إلى البحيرة... أليست جميلة؟

فتحي التفت إلى الجهة الأخرى من الطريق. بحيرة قارون تمتد أمامه بلونها الأرجواني الهادئ، تحيط بها الحقول الخضراء والنخيل. في الأفق البعيد، كانت مدينة الفيوم تبدو كأنها تطفو فوق الضباب الحراري.

تمتم:

ـ جميلة... لو لم تكن درجة الحرارة خمسًا وأربعين.

دخلا الفندق. الردهة واسعة وباردة بفضل المكيفات القديمة التي كانت تئن كأنها على وشك الاستسلام. موظف الاستقبال ابتسم لهما ابتسامة مهنية، وسلمهما المفتاح.

بينما كانا يصعدان إلى غرفتهما في الطابق الثاني، سمعت داليا صوتًا خلفهما. رجلان يتحدثان بالقرب من الباب الزجاجي المطل على البحيرة:

ـ أقسم لك إني شفته بنفسي... رقبة طويلة زي الحوت، وراسه مسطح، وعينيه واسعتين بيبصوا فيك كأنهم فاهمين.

ـ بأه يا عم، كل شوية حد يشوف الوحش. من أيام جدي وهما بيحكوا الحكاية دي.

فتحي توقف لحظة، ثم تابع صعوده دون أن يعلق. داليا نظرت إليه من طرف عينها، لكنها لم تتكلم حتى دخلا الغرفة وأغلقا الباب.

رمت حقيبتها على السرير وقالت وهي تبتسم:

ـ سمعت؟ وحش بحيرة قارون.

فتحي خلع قميصه المبلل ورماه على الكرسي.

ـ كل بحيرة في مصر لها وحش. وبحيرة قارون لها نصيبها من الخيال الشعبي. أسماك كبيرة، أو جذوع نخل طافية، أو خيال محموم في ليلة ضباب.

ـ وأنت عالم الحيوان المشهور هتقول كده؟

ـ بالضبط لأنني عالم حيوان. لو كان فيه مخلوق بالحجم اللي بيتكلموا عنه، كان اتصور ألف مرة، أو اتصطاد، أو على الأقل اتكاتبت عنه ورقة علمية محترمة. لكن كل اللي عندنا حكايات صيادين بعد منتصف الليل.

داليا فتحت الشباك. الهواء الساخن اندفع إلى الغرفة، ومعه رائحة الماء والطمي.

ـ طيب، هنفترض إنك صح. بس لو شفناه؟

فتحي ضحك للمرة الأولى منذ وصلا.

ـ لو شفناه، هعمل لك تمثال من الذهب وأحطه في المتحف. وأكتب على القاعدة: «إلى زوجتي التي أجبرتني على تصديق الخرافات».

داليا رمت عليه منشفة نظيفة.

ـ روح اغتسل. بعد الغدا هنمشي حوالين البحيرة. وأنا عايزة أشوف المكان اللي بيقولوا إنه بيظهر فيه.

فتحي أخذ المنشفة واتجه إلى الحمام، وهو يتمتم:

ـ وحش بحيرة قارون... يا سلام على الإجازة العلمية.

لكن وهو يفتح صنبور الماء البارد، خطرت له جملة قالها أحد الرجلين في الردهة:

«وعينيه واسعتين بيبصوا فيك كأنهم فاهمين.»

هز رأسه وطرد الفكرة. الخيال الشعبي دائمًا يضيف تفاصيل درامية. لا أكثر.

خارج النافذة، كانت بحيرة قارون راقدة تحت الشمس الحارقة، هادئة، ساكنة، كأنها تخفي شيئًا في أعماقها.

الفصل الثالث

المجلس الرئاسي

قاعة المجلس الرئاسي في مدينة الفيروز كانت أكبر حجرات المدينة، منحوتة في صخرة مرجانية شفافة تتوهج بلون تركواز خافت. الجدران مغطاة بنقوش قديمة تروي انتصارات الأجداد على أسماك القرش والحيتان، لكن معظم النقوش الآن باهتة ومتشققة بفعل الهزات المتكررة.

زوسر وصل مبكرًا. جلس في الصف الأمامي، بجانب الحراس القدامى الذين فقدوا أبناءهم في المواسم الأخيرة. الماء داخل القاعة كان أكثر برودة من المعتاد، والتيار الخفيف يحمل رائحة الخوف المختلط باليأس.

دخل الرئيس أخيرًا. كان كبيرًا في السن، جلده مترهلًا، وعيناه غائرتين من قلة النوم. صعد إلى المنصة الصخرية وضرب الماء بكفيه الضخمتين. الاهتزازات انتشرت في القاعة كلها، فسكت الجميع.

قال بصوت أجش:

ـ منذ بداية الموسم القادم... سنخفض حصة نبات البلانكتون إلى النصف.

تنهيدة جماعية خرجت من مئات الخياشيم دفعة واحدة. الاهتزازات الضعيفة ملأت القاعة كأنها أنين جماعي.

واصل الرئيس:

ـ المزارع في الشمال الغربي دُمرت بالكامل بعد الهزة الأخيرة. وما تبقى لا يكفي إلا لنصف عددنا الحالي. وفي الموسم الماضي قتلنا أكثر من مائة... معظمهم بفكوك القرش والباراكودا. عددنا الآن أقل من سبعمائة. وكلما قل عددنا ضعفت دفاعاتنا، وكلما ضعفت دفاعاتنا زادت هجماتهم.

صمت لحظة، ثم أضاف بصوت أهدأ:

ـ مدينة الفيروز هي آخر ما تبقى لنا بعد سقوط الزبرجد. وإذا استمر الوضع على هذا الحال... فلن نصمد عشرة مواسم أخرى.

أحد الشيوخ في الصف الخلفي صاح:

ـ إذن ماذا نفعل؟ نموت جوعًا أم نموت تحت أسنانهم؟

الرئيس رفع يده ليصمت القاعة.

ـ هناك فرصة واحدة. فرصة أخيرة.

التفت نحو زوسر.

ـ زوسر... تعال إلى المنصة.

زوسر سبح ببطء وصعد إلى جانب الرئيس. شعر بمئات العيون تحدق فيه.

قال الرئيس:

ـ هذا المواطن ابتكر رداء ضغط جديدًا. رداء يسمح لنا بالصعود إلى المياه الرقيقة... إلى عالم الأقزام. عالم البشر.

همهمة عالية ملأت القاعة. بعضهم صاح بالرفض، وبعضهم صمت في ذهول.

الرئيس رفع صوته فوق الضوضاء:

ـ طوال مئات المواسم كنا نراقبهم من قاعدة التوباز. رأينا تركيباتهم الصناعية الغارقة، ورأينا أجسادهم الميتة. هم أقزام ضعاف، لكنهم أذكياء. يملكون أدوات تقتل من مسافة بعيدة، ويملكون معرفة بالعالم فوق الماء. إذا نجحنا في الاتصال بهم... يمكنهم مساعدتنا ضد القرش والباراكودا. ويمكننا أن نعطيهم مقابل ذلك ثروات القاع التي لا يعرفون عنها شيئًا.

التفت مرة أخرى إلى زوسر.

ـ وقد تطوع زوسر ليكون الرسول الأول.

زوسر شعر بقلبه يدق بقوة داخل صدره. نظر إلى الوجوه من حوله: وجوه متعبة، خائفة، يائسة... ووجوه أخرى تتقد بأمل ضعيف.

قال بصوت واضح، والاهتزازات تخرج من صدره قوية:

ـ سأذهب. وإذا نجحت... سأعود ومعي تحالف ينقذ مدينتنا. وإذا فشلت... فسأموت وأنا أحاول، لا وأنا أنتظر الموت هنا.

الصمت الذي أعقب كلماته كان أثقل من الماء نفسه.

ثم بدأ التصفيق.

أولًا من الحراس، ثم من الشباب، ثم من معظم الحاضرين. حتى الشيوخ الذين كانوا يعارضون الفكرة رفعوا أيديهم ببطء.

الرئيس وضع يده على كتف زوسر.

ـ غدًا عند الفجر تخرج. ستة حراس سيرافقونك حتى مدخل النفق. بعد ذلك... ستكون وحيدًا.

زوسر أومأ برأسه. نظر إلى القاعة مرة أخيرة، ثم سبح نحو المخرج.

خارج القاعة، كان الماء باردًا ومظلمًا. وفي مكان ما في الأعماق البعيدة، كانت أسماك القرش تدور في دوائر بطيئة، كأنها تشم رائحة التغيير القادم.

وزوسر كان يعرف أن الغد لن يكون مجرد رحلة.

سيكون إما بداية الخلاص... أو نهاية كل شيء.

الفصل الرابع

الشائعات

بعد الغداء، جلس فتحي وداليا في الشرفة الصغيرة المطلة على البحيرة. الشمس كانت قد مالت قليلًا، لكن الحرارة لم تخف. فتحي يشرب عصيرًا باردًا ببطء، وداليا تقلب مجلة سياحية دون أن تركز فيها.

فجأة سمعت أصواتًا عالية قادمة من المرفأ الصغير أسفل الفندق. مجموعة من العمال كانوا ينزلون من قارب ألومنيوم، يتحدثون بصوت مرتفع وهم يمسحون العرق عن وجوههم.

اقتربت داليا من الدرابزين لتسمع أفضل.

ـ أقسم بالله العظيم إني شفته النهاردة الصبح... رقبة طويلة خارجة من المية، وراسه زي رأس التمساح بس أكبر، وعينيه واسعتين بيبصوا فيك كأنهم بشر.

ـ يا لطفي أنت بتحلم. الشمس ضربتك.

ـ والله ما بحلم. زميلي في قسم البرادة شافه كمان. وقال إنه تحرك باتجاه الشمال بسرعة غريبة... مش زي أي سمكة.

فتحي رفع رأسه من كوبه.

ـ عمال مصنع الألومنيوم في سنورس... أفضل مصدر علمي للمخلوقات البحرية النادرة.

داليا التفتت إليه مبتسمة.

ـ اسمع بس. يمكن يبقى فيه حاجة.

ـ فيه حاجة اسمها الخيال الجماعي. واحد يشوف جذع نخلة أو موجة غريبة، يحكي لزميله، الزميل يضيف تفاصيل، وبعد يومين يبقى عندنا وحش بحيرة قارون كامل المواصفات.

نزل الاثنان إلى المرفأ. العمال كانوا لا يزالون هناك، يشربون الشاي من أكواب بلاستيكية. داليا اقتربت منهم بابتسامة ودودة.

ـ مساء الخير... سمعتكم بتتكلموا عن الوحش؟

الرجل الذي يُدعى لطفي نظر إليها ثم إلى فتحي، وابتسم بخجل.

ـ أيوه يا فندم. مش أول مرة يظهر. جدي كان يحكي إنه شافه زمان وأنا صغير. بس النهاردة كان أوضح من أي مرة.

فتحي سأله بهدوء، كأنه يجري مقابلة علمية:

ـ تقدر توصفه بدقة أكثر؟ الحجم؟ اللون؟ طريقة الحركة؟

لطفي حك رأسه.

ـ الرقبة طولها تقريبًا تلاتة متر... والجسم تحت المية كان كبير أوي. اللون رمادي غامق أو أخضر... مش متأكد. بس العينين... العينين كانوا واسعين وبيلمعوا، وكأنه بيبص فينا وفاهم إننا هنا.

فتحي أخرج دفترًا صغيرًا من جيب قميصه وبدأ يكتب بسرعة. داليا نظرت إليه مستغربة.

ـ بتسجل؟

ـ بتسجيل الشائعات. عشان لما نرجع أكتب مقالة عن كيف تتطور الأساطير الشعبية في المناطق السياحية.

لطفي أضاف بحماس:

ـ ولو شفتوه بليل هيكون أوضح. بيقولوا إنه بيظهر أكتر لما الضباب ينزل على المية.

فتحي أغلق الدفتر.

ـ شكرًا. معلومة مفيدة.

عاد الاثنان إلى الفندق. في الطريق قالت داليا:

ـ ليه مش عايز تروح بليل؟ حتى لو عشان تتأكد إنه مفيش حاجة؟

فتحي نظر إلى البحيرة التي كانت بدأت تكتسي بلون برتقالي مع غروب الشمس.

ـ لأنني أعرف مسبقًا ما سنراه: ماء أسود، وربما بعض الأسماك الكبيرة، وربما خيالنا نحن. وأنا جئت هنا لأرتاح، مش عشان أقضي الليل أطارد خرافات الصيادين.

لكن في تلك الليلة، بعد أن نامت داليا، جلس فتحي على الشرفة وحده. فتح الدفتر مرة أخرى وكتب تحت ملاحظات اليوم جملة واحدة فقط، ثم شطبها بسرعة:

«عيون واسعة... كأنها تفهم.»

ألقى القلم جانبًا ونظر إلى البحيرة المظلمة.

لا شيء يتحرك على السطح.

ومع ذلك، ظل يشعر أن هناك شيئًا ما يراقبه من الأعماق.

الفصل الخامس

الاستعداد

في الحجرة الخاصة تحت قاعدة التوباز، كان رداء الضغط معلقًا في وسط الماء كأنه مخلوق غريب بحد ذاته. مصنوع من طبقات الإسفنج الكثيف والمرجان المرن، ومبطن من الداخل بمادة لزجة تفرزها بعض الطحالب العميقة لتحفظ الرطوبة. الزعانف الاصطناعية مثبتة على الجانبين، وخوذة الرأس شفافة تمامًا إلا من شريط داكن عند مستوى العينين.

زوسر سبح حوله ببطء، يفحص كل جزء للمرة العاشرة.

قال الحارس العجوز الذي كان يساعده:

ـ جربناه ثلاث مرات في المياه المتوسطة. يتحمل الضغط حتى سطح الضباب. لكن فوق ذلك... لا أحد يعرف.

زوسر لم يرد. أدخل ذراعيه في الرداء أولًا، ثم دفع جسمه إلى الداخل. المادة اللزجة التصقت بجلده فورًا، وشعرت بالبرودة ثم بالدفء. عندما أُغلق غطاء الرأس، سمع صوتًا خافتًا كأنه تنفس الإسفنج نفسه.

سبح عدة دورات داخل الحجرة الضيقة. الحركة كانت أثقل مما اعتاد، لكن ممكنة. رفع يده أمام وجهه ورأى أصابعه من خلال الطبقة الشفافة.

ـ جاهز؟

ـ جاهز.

خرج من الرداء بعد نصف ساعة. جلده كان مغطى بطبقة رقيقة من المادة الحافظة. شعر بالإرهاق، لكنه لم يظهره.

عندما عاد إلى مدينة الفيروز، كانت نِفرِت تنتظره عند باب المنزل. توت كانت نائمة في الداخل.

دخل الاثنان الحجرة الداخلية وأغلقا الفتحة خلفهما. الماء هنا كان أهدأ وأكثر دفئًا.

نِفرِت قالت بصوت منخفض:

ـ هل جربته؟

ـ نعم. يعمل.

ـ وهل أنت متأكد أنك ستعود؟

زوسر نظر إليها. عيناها الواسعتان كانتا تلمعان في الضوء الفسفوري الخافت.

ـ لا أحد متأكد من شيء منذ أن سقطت الزبرجد.

اقتربت منه ووضعت كفيها على جانبي رأسه.

ـ أنا لا أطلب منك البقاء. أعرف أنك لو بقيت ستموت هنا معنا ببطء. لكن أريدك أن تعدني بشيء واحد فقط.

ـ ماذا؟

ـ إذا رأيت أنهم خطر... إذا شعرت أنهم سيؤذونك... ارجع فورًا. لا تحاول إقناعهم. لا تضحِّ بنفسك من أجل أمل قد يكون كاذبًا.

زوسر أمسك بكفيها وأنزلهما برفق.

ـ سأعود. مهما حدث.

جلسا في صمت طويل. ثم قالت نِفرِت فجأة:

ـ هل تتذكر القصص التي كان يحكيها جدك؟

ـ عن ماذا؟

ـ عن الأيام التي كنا فيها سادة المحيطات كلها. من المنطقة الباردة إلى الدافئة. الحيتان كانت تأتي عندما نناديها، وأسماك القرش تهرب إلى المياه المتوسطة. كنا نصطادها للرياضة فقط.

زوسر أغمض عينيه. الصور القديمة حضرت بقوة: المدن المضيئة التي تمتد لمسافات لا تُحصى، القطعان الضخمة من الحيتان المروضة، والأغاني الجماعية التي كانت تهز الماء لمئات الأمتار.

قال بصوت خافت:

ـ ثم جاءت الكارثة الكبرى. انهار قاع المحيط. تصاعدت الأبخرة السامة. ومات معظمنا في أيام قليلة. لم يتبقَّ إلا مدن الشمال والجنوب... ثم سقطت هي الأخرى واحدة تلو الأخرى.

ـ والآن لم يبقَ إلا نحن.

ـ والآن لم يبقَ إلا نحن.

نِفرِت أسندت رأسها إلى صدره.

ـ أحيانًا أفكر... هل يستحق الأمر؟ أن نمد أيدينا إلى الأقزام الذين يعيشون فوق الضباب؟ ربما هم أسوأ من أسماك القرش.

زوسر وضع ذراعه حولها.

ـ ربما. لكن أسماك القرش لا تبني أشياء. والأسماك لا تحلم. إذا كان هناك أي أمل متبقٍّ... فهو عندهم.

خارج المنزل، كانت أضواء المدينة تضعف تدريجيًا. في مكان ما بعيد، سمعت صرخة إنذار قصيرة... ثم صمت.

نِفرِت همست:

ـ غدًا عند الفجر تخرج.

ـ نعم.

ـ سأذهب معك حتى مدخل النفق.

ـ لا. ابقَ مع توت.

ـ سأذهب.

زوسر لم يجادل. عرف أنها لن تتراجع.

في تلك الليلة، ناما ملتصقين أكثر من أي ليلة سابقة. وكأنهما يحاولان أن يحفظا دفء بعضهما إلى الأبد.

وقبل أن يغمض زوسر عينيه تمامًا، رأى في خياله صورة الرداء الشفاف وهو يطفو على سطح الماء المجهول... ورأى عيونًا غريبة تحدق فيه من عالم الضباب.

الفصل السادس

الطريق إلى النفق

الفجر المائي كان لا يزال رماديًا حين غادر زوسر مدينة الفيروز. ستة حراس سبحوا معه في تشكيل دفاعي محكم: اثنان في المقدمة، واثنان على الجانبين، واثنان في الخلف. كلهم يرتدون دروع الحراسة الثقيلة، ويحملون رماحًا مرجانية طويلة مسنونة.

نِفرِت رافقتهم حتى بوابة المدينة الشمالية. لم تتكلم. فقط لمست جبين زوسر بجبهتها لحظة قصيرة، ثم ابتعدت ببطء وهي تنظر إليهم حتى اختفوا في العتمة.

الطريق إلى قاعدة التوباز كان يستغرق عادة نصف يوم سباحة قوي. لكنهم كانوا أبطأ هذه المرة بسبب الحذر. التيارات كانت باردة وحادة، والحياة البحرية شحيحة. كلما ابتعدوا عن المدينة، زاد الشعور بالوحدة والخطر.

بعد ساعات، ظهرت الظلال.

أربع أسماك قرش كبيرة، تحوم فوقهم في دوائر واسعة. عيونها السوداء تلمع في الضوء الخافت. لم تهاجم فورًا. كانت تراقب، تقيس المسافات، تنتظر اللحظة المناسبة.

الحارس الأمامي أطلق صيحة إنذار قصيرة. التشكيل انكمش. زوسر شعر بعضلاته تتوتر داخل الرداء الذي يحمله ملفوفًا على ظهره.

اقتربت أقرب سمكة فجأة من الجانب الأيمن. الحارسان هناك اندفعا نحوها برماحهما. أصاب أحدهما الزعنفة الصدرية، فابتعدت وهي تطلق فقاعات دم داكنة. لكن السمكتين الأخريين انقضتا من الأعلى.

زوسر دفع جسمه إلى الأمام وضرب إحداهما بذيله بقوة كاملة. الاصطدام هزّه حتى أسنانه، لكنه أبعدها مسافة كافية. الحراس الآخرون شكلوا دائرة ضيقة حوله، الرماح موجهة إلى الخارج.

القتال استمر دقائق بدت كساعات. رمح انكسر. أحد الحراس أصيب في كتفه بجرح عميق. الدم انتشر في الماء كسحابة حمراء، وهو ما جعل الأسماك أكثر شراسة.

ثم، فجأة، انسحبت.

كأنها سمعت نداءً بعيدًا، أو شعرت أن الوقت لم يحن بعد. اختفت في العتمة بنفس السرعة التي ظهرت بها.

الحراس تجمعوا حول الجريح. لفوا الجرح بأعشاب طبية لاصقة، وواصلوا السباحة ببطء أكثر.

زوسر كان يسبح في الصمت. لم يشعر بالانتصار. شعر بثقل أكبر.

كل متر يقطعه كان يبعده أكثر عن نِفرِت وتوت. وكل متر يجعل مسؤولية شعبه أثقل على كتفيه. إذا فشل، فلن يكون موته وحده هو الثمن. سيكون موت مدينة كاملة، وموت آخر من تبقى من جنسه.

بعد ساعات طويلة، ظهرت أخيرًا فتحة النفق المظلمة في قاعدة التوباز.

المدخل كان ضيقًا ومحاطًا بصخور حادة. الحراس توقفوا عند الحافة. لا أحد منهم كان مخولًا بالدخول أبعد من ذلك.

القائد قال لزوسر وهو يضع يده على كتفه:

ـ من هنا... أنت وحدك.

زوسر أومأ. فك رداء الضغط عن ظهره وبدأ يرتديه ببطء أمامهم. عندما أغلق خوذة الرأس، نظر إليهم مرة أخيرة من خلال الطبقة الشفافة.

ثم استدار وسبح داخل النفق المظلم.

خلفه، ظل الحراس يراقبون حتى اختفى نوره الصغير تمامًا.

وأمامه، كان الظلام يزداد كثافة مع كل ضربة ذيل... والضغط يتغير تدريجيًا... والعالم الذي يعرفه يبتعد إلى الأبد.

الفصل السابع

الليلة الأولى

بعد العشاء، اقترحَت داليا أن يتنزها قليلًا حول البحيرة قبل النوم. فتحي وافق على مضض. الهواء كان لا يزال حارًا، لكن نسيمًا خفيفًا بدأ يهب من جهة الماء.

سارا على الطريق الترابي الضيق الذي يحاذي الشاطئ الشمالي. القمر مكتمل تقريبًا، يلقي ضوءًا فضيًا على سطح البحيرة الهادئ. في الأفق، كانت أضواء مدينة الفيوم تبدو بعيدة وباهتة.

داليا قالت وهي تربط شعرها للخلف:

ـ الجو أحلى بكتير من النهار. يمكن لو جينا بليل من الأول كنتِ اقتنعت إن المكان يستاهل.

فتحي ابتسم نصف ابتسامة.

ـ المكان جميل. المشكلة في الحكايات اللي بتلف حواليه.

توقفا عند ربوة صغيرة تطل مباشرة على الماء. جلسا على صخرة مسطحة. الصمت كان شبه كامل، إلا من صوت الماء الخفيف وهو يلامس الشاطئ، وصرير الحشرات البعيدة.

فجأة سمعت داليا صوتًا.

ليس صوت موجة عادية. كان أشبه باندفاع ثقيل تحت السطح، ثم صمت، ثم اندفاع آخر أبعد قليلًا.

ـ سمعت؟

فتحي مال بجسمه إلى الأمام.

ـ سمكة كبيرة... أو ربما سلحفاة. البحيرة فيها أسماك قاروص وطوبار بحجم محترم.

الصوت تكرر مرة ثالثة، أقرب هذه المرة. ثم ظهر على السطح اضطراب دائري واسع، كأن شيئًا ضخمًا يدور تحته ببطء.

داليا وقفت.

ـ ده مش سمكة يا فتحي.

ـ طب ما هو إيه؟ الوحش؟

حاول أن يبدو ساخرًا، لكن صوته جاء أقل ثقة من المعتاد. أخرج مصباح الجيب الصغير الذي كان يحمله في جيبه، ووجه ضوءه نحو الماء.

الشعاع الأبيض اخترق السطح لمتر أو مترين فقط، ثم اختفى في العتمة. لا شيء يظهر. لكن الاضطراب تحت الماء استمر لبضع ثوانٍ أخرى قبل أن يهدأ تمامًا.

جلس فتحي مرة أخرى وهو يتمتم:

ـ تيارات تحتية... أو أسماك تتغذى ليلاً. أي تفسير علمي أفضل من الوحش.

داليا لم ترد. ظلت واقفة تنظر إلى البقعة التي كان فيها الاضطراب. القمر ينعكس على الماء كطريق فضي مكسور.

بعد دقيقة قالت بصوت خافت:

ـ عيون واسعة... كأنها تفهم.

فتحي التفت إليها.

ـ إيه؟

ـ الجملة اللي قالها العامل النهاردة. أنا مش قادرة أنساها.

فتحي أطفأ المصباح ووضعه في جيبه.

ـ خلينا نرجع. بكرة لو حبيتي نيجي الصبح ونسأل الصيادين. بس كفاية خيال الليلة دي.

سارا في طريق العودة دون كلام كثير. داليا كانت تلتفت بين الحين والآخر إلى البحيرة. فتحي كان ينظر أمامه فقط، لكنه في داخله كان يعيد تشغيل الصوت الذي سمعه مرارًا.

عندما وصلا إلى الفندق وصعدا إلى غرفتهما، وقفت داليا عند الشباك قبل أن تطفئ النور.

ـ لو ظهر تاني... هتنزل تشوفه؟

فتحي كان يخلع حذاءه.

ـ لو ظهر تاني، وأنا متأكد إنه سمكة، هصوره وأبعته لمجلة العلوم كطرفة.

لكنه بعد أن نامت داليا، ظل مستيقظًا وقتًا طويلًا. النافذة كانت مفتوحة، وصوت الماء يصل خافتًا إلى الغرفة.

وفي لحظة ما، بدا له أنه يسمع مرة أخرى ذلك الاندفاع الثقيل البعيد... ثم الصمت.

أدار ظهره إلى الشباك وأغلق عينيه بقوة.

«أسماك كبيرة فقط»... كرر الجملة في رأسه كأنها تعويذة.

لكن الجملة الأخرى ظلت تلاحقه حتى غلبه النوم:

«عيون واسعة... كأنها تفهم.»

الفصل الثامن

الصعود

النفق كان أضيق مما توقع زوسر.

الجدران الصخرية تلامس كتفيه من الجانبين في بعض المواضع، والتيار داخله ضعيف وبارد جدًا. الضوء الفسفوري الصغير المثبت على خوذته يكشف أمامه أمتارًا قليلة فقط من الظلام الدامس. كلما صعد، شعر بالضغط يتغير تدريجيًا حول جسمه داخل

الرداء. الإسفنج المبطن بدأ يفرز مادته اللزجة بكثافة أكبر، كأنه يحاول حماية الجلد من الجفاف القادم.

بعد وقت بدا له أبديًا، اتسع النفق فجأة.

وصل إلى قاعدة التوباز.

المغارة كانت واسعة ومستديرة، جدرانها مغطاة بطبقة رقيقة من الطحالب المضيئة التي تعطيه ضوءًا أخضر باهتًا. في الوسط، كانت هناك منصة صخرية مسطحة، وعليها بقايا أدوات قديمة تركها المراقبون السابقون: أصداف محفورة، وقطع مرجان مصقول، ولوح حجري عليه علامات لم يعد أحد يفكها.

زوسر خلع الرداء مؤقتًا ووضعه على المنصة. سبح حول المغارة مرة ومرتين، يتنفس الماء البارد بعمق. هنا كان آخر مكان يشبه عالمه. بعد هذه النقطة... لا شيء مما يعرفه.

توقف أمام الجدار الشمالي حيث يوجد المخرج الأخير: فتحة دائرية محاطة بحلقات مرجانية سميكة، تؤدي مباشرة إلى المياه الرقيقة ثم إلى الضباب.

نظر إليها وقتًا طويلًا.

للمرة الأولى منذ أن تطوع لهذه المهمة، شعر بالخوف الحقيقي.

ليس خوف أسماك القرش، ولا خوف الموت تحت أنيابها. ذلك الخوف كان مألوفًا، يمكن محاربته بالرمح أو بالسرعة. أما هذا الخوف فكان مختلفًا. خوف من المجهول المطلق. خوف من عالم بلا ماء، عالم يتنفس فيه المخلوقات هواءً سامًا، ويمشون على أرجل صلبة، ويرون بعيون صغيرة غريبة.

تذكر كلام نِفرِت:

«إذا رأيت أنهم خطر... ارجع فورًا.»

هل يستطيع أن يرجع؟ بعد كل هذا الطريق؟ بعد أن وضع شعبه كله أمله في هذه الرحلة؟

جلس على المنصة الصخرية وأغلق عينيه. صور توت وهي نائمة على صدر أمها حضرت بقوة. ثم صورة المدينة وهي تزداد ظلمة موسمًا بعد موسم. ثم وجوه الحراس الذين ودعوه عند مدخل النفق.

فتح عينيه.

ارتدى الرداء مرة أخرى ببطء شديد. تأكد من كل إغلاق، من كل طبقة، من فتحة التنفس الصغيرة التي يجب أن تُسد تمامًا قبل الخروج. عندما أغلق خوذة الرأس للمرة الأخيرة، سمع صوت تنفسه هو فقط داخل الفراغ الضيق.

سبح نحو الفتحة.

توقف عند حافتها.

الماء أمامه كان يبدأ يتغير. أصبح أقل كثافة، وأكثر اضطرابًا. الضوء من الأعلى — ضوء غريب أصفر باهت — كان يتسرب إلى الأسفل كألسنة رفيعة.

زوسر دفع جسمه إلى الأمام.

دخل المياه الرقيقة.

الضغط انخفض فجأة بشكل مؤلم. شعر بجسمه يحاول أن يتمدد داخل الرداء. المادة اللزجة عملت بكامل طاقتها. الرؤية أمامه تشوشت للحظات ثم صفت.

واصل الصعود.

كلما ارتفع، قلّ الماء أكثر. ثم فجأة... لم يعد هناك ماء فوقه.

رأسه اخترق السطح.

للمرة الأولى في حياته، رأى العالم من فوق الماء.

السماء كانت شاسعة ومظلمة ومرصعة بنقاط ضوء باردة. والقمر — ذلك القرص الأبيض الكبير الذي كان يراه المراقبون من بعيد — كان معلقًا فوقه مباشرة، كبيرًا ومخيفًا. والهواء... الهواء ضرب وجهه من خلال الطبقة الشفافة كأنه شيء حي يحاول الدخول.

زوسر بقي نصف جسمه خارج الماء، يتنفس بصعوبة داخل الرداء، ويحدق في هذا العالم المستحيل.

خلفه، تحت الماء، كانت قاعدة التوباز والمغارة والنفق ومدينة الفيروز... كل شيء يبتعد.

وأمامه، كانت بحيرة واسعة هادئة تحت ضوء القمر، وشواطئ مظلمة، وأضواء بعيدة لبيوت الأقزام.

وفي صدره، كان الخوف لا يزال موجودًا.

لكن معه شيء آخر أيضًا.

أمل هش... وثقيل... ووحيد.

الفصل التاسع

الظهور الأول

القمر كان مرتفعًا في وسط السماء حين دفع زوسر جسمه بالكامل خارج الماء للمرة الأولى.

الرداء الثقيل جعله يطفو بصعوبة. نصف جسمه السفلي لا يزال مغمورًا، بينما ارتفع عنقه الطويل ورأسه فوق السطح. الهواء البارد ضرب الطبقة الشفافة حول رأسه كأنه آلاف الإبر الدقيقة. الرؤية كانت غريبة ومشوشة في البداية، ثم اتضحت تدريجيًا.

رأى الشاطئ القريب.

أضواء قليلة متناثرة. بيوت منخفضة. وأبعد منها، أضواء الفندق التي كانت تبدو له كنجوم قريبة.

سبح ببطء نحو الوسط، حيث الماء أعمق وأكثر أمانًا. كل حركة كانت مرهقة. الذيل الذي اعتاد أن يدفعه بقوة في الأعماق صار ثقيلًا وبطيئًا هنا. لكنه استمر.

على الشاطئ الشمالي، كان هناك ثلاثة صيادين يجلسون حول مصباح غاز صغير، يصلحون شباكهم. أحدهم رفع رأسه فجأة.

ـ إيه ده؟

الآخران التفتا. في وسط البحيرة، تحت ضوء القمر، كان شيء ضخم يتحرك. رقبة طويلة ترتفع وتنخفض، ورأس عريض يلتفت ببطء كأنه يبحث عن شيء.

الصياد الأول وقف صارخًا:

ـ الوحش! الوحش رجع!

ركضوا نحو البيوت القريبة. الصرخات انتشرت بسرعة. أضواء نوافذ أضيئت واحدة بعد أخرى. ناس خرجوا بالملابس الداخلية، يشيرون نحو الماء ويصيحون.

زوسر سمع الأصوات العالية الغريبة. لم يفهم الكلمات، لكنه فهم النبرة: خوف، وذعر، وعداء. توقف عن السباحة. رفع رأسه أعلى قليلاً محاولًا أن يبدو غير مهدد. حرك رأسه ببطء من اليمين إلى اليسار، كأنه يحيي أو يطلب الانتباه.

لكن الصراخ ازداد.

شخص ما أطلق عيارًا ناريًا في الهواء. الصوت الحاد اخترق الماء ووصل إلى أذني زوسر كضربة مطرقة. انكمش غريزيًا وغاص تحت السطح فورًا.

سبح باتجاه الأعماق القريبة من قاعدة التوباز، قلبه يدق بعنف داخل صدره. بقي تحت الماء وقتًا طويلًا حتى هدأت الأصوات فوقه.

ثم صعد مرة أخرى بحذر شديد، هذه المرة أبعد عن الشاطئ.

في الفندق، كان فتحي وداليا قد ناما حين سمعا الطرق العنيف على باب غرفتهما.

صوت موظف الاستقبال مرتجف:

ـ دكتور... الوحش ظهر! الناس كلها نازلة على البحيرة!

فتحي انتفض من النوم. داليا كانت أسرع منه. ارتديا ملابسهما على عجل ونزلا السلم ركضًا.

عندما وصلا إلى الشاطئ، كان الحشد قد تجمع بالفعل على الجسر القديم. عشرات الأشخاص يحملون مصابيح يدوية وهواتف، يشيرون إلى وسط البحيرة ويتكلمون دفعة واحدة.

ـ كان هنا من دقيقتين!

ـ رقبة طويلة أوي!

ـ عينيه كانوا بيلموا في القمر!

فتحي شق طريقه بين الناس حتى وصل إلى حافة الجسر. داليا بجانبه. نظرا معًا إلى الماء الفضي الهادئ.

لا شيء.

السطح كان ساكنًا تمامًا، كأن شيئًا لم يحدث.

رجل بجانبهما قال وهو يلهث:

ـ والله العظيم كان واقف في الوسط... راسه برا المية... وبعدين غاص لما حد ضرب في الهوا.

فتحي لم يرد. ظل يحدق في البقعة التي يشير إليها الجميع. المصباح اليدوي الذي أحضره معه لم يكن قويًا بما يكفي ليصل إلى الوسط.

داليا همست:

ـ فاتنا.

فتحي أجاب بصوت منخفض، دون أن يبعد عينيه عن الماء:

ـ أو ما كانش فيه حاجة من الأساس.

لكنه هذه المرة لم يكن واثقًا من كلماته كما كان في الليلة السابقة.

الناس ظلت واقفة وقتًا طويلًا، تنتظر الظهور الثاني الذي لم يأتِ. تدريجيًا بدأ الحشد يتفرق. فتحي ودااليا عادا إلى الفندق في الصمت.

عند باب الغرفة، التفتت داليا إليه وقالت:

ـ بكرة هنروح بدري. قبل ما أي حد تاني يروح.

فتحي أومأ فقط.

وفي تلك الليلة، للمرة الثانية على التوالي، نام وهو يسمع في رأسه صوت الاندفاع الثقيل تحت الماء... وصوت الصرخات البشرية التي لم يفهم زوسر منها شيئًا.

الفصل العاشر

الذكريات

زوسر غاص عميقًا هذه المرة.

لم يتوقف عند قاعدة التوباز. واصل النزول عبر النفق حتى وصل إلى المياه المألوفة، حيث الضغط ثقيل ومريح، والضوء الفسفوري الطبيعي يبدد العتمة. خلع الرداء وتركه على صخرة قريبة، ثم استلقى على قاع رملي ناعم، يتنفس ببطء ويحاول تهدئة ضربات قلبه.

الصور كانت تلاحقه.

الوجوه البشرية على الشاطئ، الأضواء الحادة، الصوت المدوي الذي اخترق الماء كالبرق. لم يكن أيٌّ من ذلك يشبه ما تخيله. كان يعتقد أن الأقزام سيخافون في البداية ثم يقتربون بحذر. بدلًا من ذلك، صرخوا وأطلقوا شيئًا يمزق الهواء نفسه.

أغمض عينيه.

فجأة حضرت ذكرى قديمة لم يفكر فيها منذ مواسم طويلة.

كان لا يزال صغيرًا، في موسم سقوط الزبرجد.

والده كان قائد إحدى وحدات الحراسة على الحدود الشمالية للمدينة. زوسر يتذكر الليلة الأخيرة بوضوح مؤلم: والده يضع يده على رأسه ويقول بصوت هادئ:

ـ إذا سمعت صفارات الإنذار الطويلة... اسبح نحو الجنوب بأقصى سرعتك. لا تنتظر أحدًا.

ثم السباحة الجماعية المخيفة. آلاف الأجسام تندفع في الظلام. الصرخات الاهتزازية المكتومة. وأسماك القرش التي جاءت في موجات لا تنتهي، كأنها تعرف أن المدينة تسقط.

زوسر لم يرَ والده مرة أخرى.

بعد أيام، وصلت بقايا الدورية. أحد الناجين قال إن والده بقي حتى اللحظة الأخيرة يغطي انسحاب العائلات، وإن آخر ما رآه منه كان وهو يواجه ثلاثة من أسماك القرش بمفرده.

منذ ذلك اليوم، صار زوسر يكره الانتظار.

كره أن يجلس في الأمان بينما الآخرون يموتون في الخارج.

فتح عينيه الآن في قاع البحيرة.

نفس الشعور عاد. شعبه ينتظر في الفيروز. نِفرِت وتوت ينتظران. والرئيس والحراس والشيوخ... كلهم ينتظرون خبرًا قد لا يأتي أبدًا إذا بقي هو هنا يختبئ من خوفه.

رفع جسمه عن القاع.

الرداء كان لا يزال حيث تركه. أخذه وارتداه مرة أخرى ببطء. هذه المرة لم يشعر بالخوف السابق نفسه. حل محله شيء أصلب: إصرار بارد.

قرر أن يصعد مرة أخرى.

لكن ليس في الليل.

في الليل يبدون خائفين وعدائيين. الأضواء والظلال تجعل كل شيء مخيفًا. أما في ضوء النهار... فربما يرونه بوضوح. ربما يلاحظون أنه لا يهاجم. ربما يتوقف أحدهم عن الصراخ وقتًا كافيًا لينظر في عينيه.

سبح نحو النفق مرة أخرى.

بينما كان يصعد، راح يكرر في داخله الخطة الجديدة:

يظهر في وسط البحيرة تحت الشمس الكاملة.

يبقى ساكنًا قدر الإمكان.

يرفع رأسه ببطء.

وينتظر.

إذا اقتربوا... جيد.

إذا صرخوا مجددًا... يغوص ويعود.

لكنه لن يختبئ هذه المرة.

عندما وصل إلى قاعدة التوباز، توقف لحظة ونظر إلى الفتحة التي تؤدي إلى السطح. الضوء الأصفر الخافت كان يتسرب منها، أقوى مما كان في الليل.

زوسر همس داخل الخوذة، كأنه يكلم والده الميت:

ـ سأحاول مرة أخرى. كما كنت ستفعل أنت.

ثم دفع جسمه إلى الأعلى، نحو المياه الرقيقة، ونحو عالم الأقزام الذي كان ينتظره تحت شمس الصباح.

الفصل الحادي عشر

الجدل العلمي

في صباح اليوم التالي، جلس فتحي وداليا في شرفة الفندق بعد الإفطار. الشمس مرتفعة والحرارة بدأت تشتد مبكرًا. فتحي كان يقلب في دفتر ملاحظاته، وداليا تشرب الشاي وتنظر إلى البحيرة التي بدت هادئة كأن شيئًا لم يحدث الليلة السابقة.

قالت داليا فجأة:

ـ بتفكر في إيه؟

فتحي رفع عينيه من الدفتر.

ـ بحاول ألاقي تفسير معقول لما حكاه الناس.

ـ يعني لسه مصر على إنها شائعات؟

ـ مش شائعات بالضرورة. ممكن يكونوا شافوا حاجة حقيقية. لكن تفسيرهم ليها هو المشكلة.

أغلق الدفتر ووضعه على الطاولة.

ـ خلينا نفكر بطريقة علمية. افترض إن في مخلوق كبير ظهر في البحيرة. السؤال الأول: من أين جاء؟ بحيرة قارون بحيرة مغلقة، مالهاش اتصال مباشر بالبحر من آلاف السنين. فإما إنه عايش فيها من زمان جدًا، وإما إن في مدخل سري تحت الأرض بيوصلها بالمياه الجوفية أو بالبحر.

داليا مالت إلى الأمام باهتمام.

ـ والمدخل السري ده ممكن؟

ـ نظريًا نعم. في كهوف وقنوات تحت الأرض في المنطقة دي موثقة من زمان. لكن احتمال إن مخلوق بالحجم ده يعدي من غير ما يتشاف أو يتسجل... ضعيف جدًا.

ـ طيب، السؤال التاني؟

ـ فرق الضغط. أي مخلوق متعود على أعماق كبيرة لو طلع فجأة لسطح المية هيموت من تمدد الغازات داخل جسمه. إلا لو كان جسمه متكيف بشكل استثنائي، أو عنده طريقة يحمي بيها نفسه.

فتحي توقف لحظة ثم أضاف:

ـ أو... لو كان مش مخلوق طبيعي بالمعنى التقليدي.

داليا حدقت فيه.

ـ يعني إيه؟

ـ يعني ممكن يكون مرتدي حاجة. غطاء واقي. زي بدلة الغطس بتاعتنا، بس أكثر تطورًا. ساعتها فرق الضغط مش هيقتله فورًا.

ضحكت داليا بدهشة.

ـ أنت دلوقتي بتتكلم زي أفلام الخيال العلمي.

ـ أنا بضع احتمالات. العالم مليان حاجات غريبة أكثر مما نتخيل. بس الاحتمال الأرجح لسه إنه سمكة كبيرة نادرة أو ظاهرة طبيعية اتفسرّت غلط.

داليا هزت رأسها.

ـ أنا مش معاكي في النقطة دي. الليلة اللي فاتت لما سمعنا الصوت، والناس اللي شافته بعيونهم... في حاجة حقيقية. ومش مجرد سمكة.

ـ طيب، افترض إنك صح. إيه اللي لازم نعمله؟

ـ نروح البحيرة دلوقتي. نقعد هناك طول اليوم لو احتاجنا. ولو ظهر، نحاول نقرب من غير ما نخوفه أو نخوف الناس.

فتحي نظر إلى ساعته ثم إلى البحيرة.

ـ الحر هيبقى نار بعد ساعة.

ـ وأنا مستعدة. أنت؟

فتحي صمت قليلًا. ثم أخذ الدفتر ووضعه في جيبه.

ـ طيب. بس شرط واحد: لو ظهر، أنا اللي هقرر نقرب إزاي. مش عايز حد يتصرف باندفاع ويعمل مشكلة.

داليا ابتسمت.

ـ موافقين.

نزلا من الشرفة واتجها نحو الشاطئ. الشمس كانت قد ارتفعت أكثر، والماء يلمع كأنه معدن سائل. على الجسر القديم كان هناك بالفعل بضعة أشخاص يقفون وينظرون إلى الوسط، كأنهم ينتظرون العرض نفسه الذي فاتهم الليلة السابقة.

فتحي همس لداليا وهما يقتربان:

ـ لو ظهر النهاردة في الضوء الكامل... ساعتها الكلام هيتغير.

داليا ردت دون أن تبعد عينيها عن الماء:

ـ أنا عارفة إنه هيظهر.

وفتحي، رغم كل فرضياته العلمية، لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يأمل — للحظة قصيرة — أنها على حق.

الفصل الثاني عشر

الظهور الثاني

الشمس كانت في كبد السماء حين ظهر.

في البداية لم يره أحد. السطح كان يلمع بشدة تحت الضوء القوي، والحرارة تجعل الهواء يرتجف فوق الماء. ثم ارتفعت الرقبة الطويلة ببطء من الوسط تمامًا، كعمود رمادي-أخضر يتسلق الهواء.

صراخ واحد قطع الصمت.

ثم انفجر الحشد.

الناس الذين كانوا يقفون على الجسر منذ الصباح اندفعوا إلى الأمام. هواتف رُفعت، أصوات تعلو فوق بعضها: «هو هو!»، «شوفوا الرقبة!»، «يا رب يا رب!». أطفال يبكون من الخوف، ورجال يصيحون لزوجاتهم أن يبتعدن.

زوسر بقي ساكنًا قدر استطاعته. نصف جسمه تحت الماء، ورأسه مرتفع فوق السطح بحوالي مترين. الماء يسيل من على الطبقة الشفافة للخوذة. حاول أن يحرك رأسه ببطء شديد يمينًا ويسارًا، كما خطط. العيون الواسعة خلف الطبقة الشفافة كانت مفتوحة بالكامل، تحدق في الحشد البشري على الشاطئ.

فتحي ودواليا وصلا راكضين مع آخرين. فتحي شق طريقه بين الأجساد حتى وصل إلى مقدمة الجسر. المسافة بينه وبين المخلوق كانت حوالي سبعين مترًا.

أخرج منظاره الصغير من جيبه ووضعه على عينيه.

الصورة اقتربت فجأة.

رأى الرأس المسطح الطويل. الجلد أو الطبقة التي تغطيه بدت صناعية في بعض المواضع، لامعة بطريقة غير طبيعية. ثم رأى العينين.

واسعتين. دائرتين. تلمعان في الضوء. وليستا عيني حيوان مفترس. فيهما شيء ثابت... شيء يشبه الانتباه. أو الفهم.

يد فتحي التي تمسك المنظار ارتجفت قليلًا.

داليا بجانبه قالت بصوت مختنق:

ـ شايف؟

ـ شايف.

ـ العينين...

ـ عارف.

زوسر شعر بالاهتزازات العالية القادمة من الشاطئ: أصوات حادة، متداخلة، مليئة بالذعر. لكنه لم يغص هذه المرة. تذكر قراره. بقي.

حاول أن يرفع إحدى يديه ببطء فوق السطح، كإشارة. الذراع خرجت ثقيلة ومغطاة بالرداء. الحشد ارتد إلى الخلف كأنه موجة عكسية. صراخات أعلى.

فتحي خفض المنظار. قلبه كان يدق بقوة.

همس لنفسه:

ـ مش سمكة... مش ممكن تكون سمكة.

التفت إلى أقرب رجل بجانبه، أحد عمال المصنع الذين تحدثوا بالأمس:

ـ محدش معاه سلاح؟

الرجل هز رأسه بسرعة.

ـ لأ... بس فيه ناس بتقول هتجيب بنادق.

فتحي شعر ببرودة تسري في ظهره رغم الحرارة.

صرخ بأعلى صوته نحو الحشد:

ـ محدش يطلق نار! اسمعوا! محدش يقرب عليه بسلاح!

لكن صوته ضاع وسط الضوضاء.

زوسر ظل يحدق. من خلف الطبقة الشفافة رأى الوجوه الكثيرة، الأيدي المرفوعة، والأجساد التي تتحرك بسرعة محمومة. ثم رأى الرجل الذي في المقدمة — فتحي — وهو يرفع يديه في الهواء كأنه يحاول تهدئة الآخرين.

للحظة قصيرة، تقاطعت نظراتهما عبر المسافة والماء والهواء.

زوسر شعر بشيء غريب في صدره. ليس خوفًا هذه المرة. شيء أقرب إلى الأمل.

ثم سمع صوتًا حادًا جديدًا يأتي من طرف الجسر.

صوت معدني يُشحَن.

شخص ما كان يحضر بندقية.

وزوسر، رغم أنه لم يفهم الكلمة، فهم النبرة.

النبرة نفسها التي سمعها في الليلة السابقة.

بدأ يخفض رأسه ببطء، يستعد للغوص إذا لزم الأمر.

وفتحي كان لا يزال يصرخ، صوته يبحّ الآن:

ـ متطلقوش! ده مش وحش... ده...!

لكن الكلمة الأخيرة ضاعت في الهواء الساخن، قبل أن يتمكن أحد من سماعها.

الفصل الثالث عشر
الرصاصة

الصوت جاء حادًا وقصيرًا كأنه انكسار شيء هش في الهواء.

زوسر شعر بالألم قبل أن يفهم مصدره.

شيء ساخن وسريع اخترق الطبقة الخارجية للرداء عند أعلى رقبته، ثم اخترق الجلد واللحم تحته. الألم انفجر كتيار كهربائي أبيض داخل رأسه. الماء من حوله بدا فجأة أحمر قاتمًا.

حاول أن يغوص.

دفع ذيله بقوة إلى الأسفل، لكن الجسم لم يستجب كما يجب. شيء ما كان مكسورًا أو مرتخيًا في جانب رقبته. الرداء الذي كان يحميه من فرق الضغط بدأ يتسرب منه الماء والهواء في آن واحد من الفتحة الصغيرة التي أحدثتها الرصاصة.

فوق السطح، انفجر الحشد.

بعضهم صرخ فرحًا، وبعضهم صرخ رعبًا. الرجل الذي أطلق النار — صياد سمين في الخمسين من عمره — كان لا يزال يرفع البندقية بيديه المرتجفتين، عيناه واسعتان كأنه لم يتوقع أن يصيب الهدف فعلًا.

فتحي ركض نحوه وهو يصرخ:

ـ إيه اللي عملته يا مجنون؟!

أمسك بفوهة البندقية وانتزعها بقوة. الرجل لم يقاوم. كان يحدق في الماء فقط.

ـ كان... كان جاي ناحيتنا...

ـ مكنش جاي! كان واقف مكانه!

داليا وصلت راكضة. نظرت إلى وسط البحيرة. الرقبة الطويلة كانت لا تزال ظاهرة، لكنها تميل الآن بزاوية غريبة. الماء حولها يتلون ببقع داكنة تتسع بسرعة.

زوسر كان يحاول السيطرة على جسمه.

كل حركة تزيد الألم. الدم يخرج من الجرح ويملأ الجزء العلوي من الرداء، يختلط بالمادة اللزجة الحافظة. الرؤية بدأت تضبب. الضغط الخارجي ينهار تدريجيًا مع تسرب الماء إلى الداخل.

تذكر نِفرِت.

تذكر توت وهي نائمة.

تذكر وعده أن يعود.

دفع جسمه مرة أخيرة إلى الأسفل بكل ما تبقى من قوته. الرأس غاص تحت السطح. الذيل ضرب الماء بقوة عشوائية، محدثًا موجة كبيرة وصلت إلى الشاطئ.

ثم صار كل شيء بطيئًا.

الماء الأحمر يحيط به من كل جهة. الصوت يبتعد. الألم يتحول إلى برودة منتشرة. حاول أن يسبح نحو اتجاه النفق، نحو قاعدة التوباز، نحو أي مكان مألوف.

لكن الاتجاهات اختلطت.

شعر بجسمه يطفو رغمًا عنه نحو السطح مرة أخرى. الرقبة المصابة لم تعد تحمله. الرأس خرج من الماء مائلًا على جنبه، العينان الواسعتان لا تزالان مفتوحتين، تحدقان في السماء البيضاء الساطعة التي لم يرها من قبل بهذا القرب.

على الجسر، ساد صمت مفاجئ قصير.

ثم همس أحدهم:

ـ مات...

فتحي كان يقف في المقدمة، المنظار لا يزال في يده مرتخيًا. رأى العينين بوضوح عبر المسافة القصيرة الآن. رآهما تثبتان للحظة على الحشد، ثم على السماء، ثم تفقدان التركيز تدريجيًا.

داليا أمسكت ذراعه بقوة.

ـ فتحي...

لم يرد.

كان يسمع فقط صوت الماء وهو يضرب جوانب الجسر، وصوت تنفسه هو نفسه، الثقيل والمتقطع.

في وسط البحيرة، توقف جسد زوسر عن الحركة تمامًا.

الرقبة الطويلة ارتخت على السطح كالعمود المكسور. والدم كان لا يزال ينتشر حوله في دوائر بطيئة واسعة تحت شمس الظهيرة الحارقة.

الفصل الرابع عشر

الموت

الجثة طفت ببطء نحو الشاطئ الشمالي مع التيار الخفيف.

الناس ظلوا متراجعين في البداية، يهمسون ويصورون من بعيد. ثم تجرأ بعضهم واقترب. فتحي كان أول من نزل إلى الماء الضحل حتى ركبتيه، ودواليا خلفه مباشرة.

الجسد كان أكبر مما بدا من الجسر. الرقبة الطويلة مرتخية على جانبها، والرأس المسطح يلامس سطح الماء. العينان الواسعتان لا تزالان مفتوحتين، لكنهما ثابتتان الآن بلا أي لمعان.

فتحي انحنى فوق الرأس.

مد يده بحذر ولامس الطبقة الشفافة التي تغطي الوجه. كانت صلبة وملساء، ليست جلدًا. ضغط عليها فأحدثت صوتًا خافتًا كالبلاستيك المقوى أو مادة مركبة لا يعرفها. عند مكان الإصابة، كانت هناك فتحة مستديرة صغيرة محترقة الحواف، وحولها تشققات امتدت في الطبقة الخارجية.

همس لنفسه:

ـ ده مش جلد...

مد يده أكثر وحاول رفع حافة الطبقة عند الرقبة. انفصلت بصعوبة، تحتها ظهر جلد رمادي ناعم مغطى ببقايا مادة لزجة شفافة. والجرح تحتها عميق ونظيف، كأنه ممر الرصاصة اخترق شيئًا مصممًا ليقاوم الضغط لا الرصاص.

داليا كانت تقف بجانبه في الماء، صوتها مرتجف:

ـ إيه ده يا فتحي؟

ـ رداء... بدلة... شيء واقي. متطور جدًا.

رفع رأسه ونظر إلى الحشد الذي بدأ يقترب أكثر.

ـ ابعدوا! متلمسوش حاجة!

لكن الفضول كان أقوى. الناس تحلقوا حول الجثة في دائرة ضيقة. أحدهم حاول سحب الذيل، فزجره فتحي بعنف.

عاد إلى فحص الرأس. العينان من قرب كانتا أكثر غرابة. الحدقتان كبيرتان ومستديرتان، والشبكية خلفهما بدت مختلفة عن أي حيوان بحري يعرفه. لا بريق مفترس، ولا فراغ سمكة. حتى في الموت كان فيهما أثر شيء آخر... أثر وعي انطفأ للتو.

شعر فتحي بغثيان مفاجئ.

وقف مستقيمًا، الماء يسيل من ملابسه. التفت إلى داليا وقال بصوت منخفض لا يسمعه الآخرون:

ـ كان عاقل.

ـ إيه؟

ـ المخلوق ده... كان عاقل. مش حيوان. الرداء ده مش طبيعي، والجرح... والطريقة اللي كان بيبص فيها فينا من الأول.

داليا وضعت يدها على فمها.

حولهما ارتفع صوت رجل يقول بفخر:

ـ أنا اللي ضربته... كان هيهجم على الناس!

فتحي التفت إليه بعينين باردتين.

ـ كان واقف مكانه. مكنش بيهجم على حد.

ثم أضاف بصوت أعلى ليسمعه الجميع:

ـ ده مش وحش. وانتوا قتلتوا حاجة أكبر منكم بكثير.

الصمت وقع للحظة قصيرة، ثم بدأ الهمس من جديد، هذه المرة بارتباك وخوف مختلف.

فتحي عاد ينظر إلى الجثة التي تطفو بهدوء بين أرجلهم في الماء الضحل. الدم كان قد توقف عن النزيف، والبقع الحمراء تتحلل ببطء في ماء البحيرة.

في داخله كان شيء ينهار بهدوء.

كل الفرضيات العلمية التي وضعها في الصباح، كل السخرية من الشائعات، كل الثقة بأنه يعرف أكثر من الباقين... سقطت دفعة واحدة أمام عينين واسعتين ثابتتين لا ترمشان.

همس مرة أخيرة، كأنه يعتذر لشيء لم يعد يسمع:

ـ آسف... جينا متأخرين.

ثم استدار وخرج من الماء بخطوات ثقيلة، تاركًا الجثة والحشد والشمس الحارقة خلفه.

ودواليا تبعته دون أن تنطق بكلمة.

الفصل الخامس عشر

الصمت تحت الماء

في مدينة الفيروز، كان الانتظار أثقل من الماء نفسه.

مرت ثلاثة أيام كاملة منذ أن غادر زوسر مع الحراس الستة نحو قاعدة التوباز. في اليوم الأول ظل الأمل مرتفعًا. في اليوم الثاني بدأ الهمس. وفي صباح اليوم الثالث، صار الصمت هو اللغة الوحيدة في الشوارع المرجانية.

نِفرِت لم تغادر المنزل إلا للضرورات. كانت تجلس ساعات طويلة قرب النافذة، توت نائمة أو تلعب بهدوء عند قدميها. كل اهتزاز بعيد في الماء يجعلها ترفع رأسها بسرعة، ثم تعود إلى السكون عندما يتضح أنه ليس هو.

في الليلة السابقة، حلمت به.

رأت الرداء الشفاف يطفو فارغًا على سطح مجهول، ورأت عينيه مغلقتين. استيقظت وهي ترتجف، ولم تعد تستطيع النوم بعد ذلك.

في قاعة المجلس الرئاسي، كان الاجتماع الثالث في ثلاثة أيام. الحضور أقل هذه المرة. الوجوه أكثر شحوبًا.

الرئيس تكلم بصوت أجش:

ـ الحراس الستة عادوا منذ يومين. قالوا إنهم تركوه عند مدخل النفق سليمًا. بعد ذلك... لا أخبار.

أحد الشيوخ قال بصوت مرتفع:

ـ إذن مات. كما مات كل من حاول قبل الآن.

ـ لا نعرف ذلك بعد.

ـ نعرف. لو كان حيًا لعاد. أو لأرسل إشارة من قاعدة التوباز كما يفعل المراقبون.

همهمة موافقة انتشرت في القاعة. الرئيس رفع يده ليصمتهم، لكن القوة لم تكن في صوته كما كانت قبل أيام.

ـ سنعطي الأمر يومين إضافيين. إذا لم يعد... نفكر في خيارات أخرى.

ـ أي خيارات؟ صاح شاب من الخلف. ـ نرسل واحدًا آخر ليموت؟ أم ننتظر هنا حتى تأتينا أسماك القرش إلى داخل البيوت؟

القاعة امتلأت بأصوات متداخلة. بعضهم يطالب بإرسال مجموعة كاملة، وبعضهم يطالب بإغلاق النفق نهائيًا ونسيان عالم الأقزام، وبعضهم يبكي بصوت مسموع.

نِفرِت كانت واقفة في الصف الأخير. لم تتكلم. فقط استمعت حتى انتهى الاجتماع في فوضى، ثم خرجت ببطء.

في الطريق إلى المنزل، التقت بأحد الحراس الذين رافقوا زوسر. الرجل كان مصابًا في كتفه ولا يزال الجرح ظاهرًا تحت الضمادة الطحلبية.

سألته بصوت هادئ:

ـ هل قال شيئًا قبل أن يدخل النفق؟

الحارس نظر إليها بتعب.

ـ قال فقط: «سأعود». ثم اختفى.

نِفرِت أومأت وشكرته ومضت.

عندما دخلت المنزل، كانت توت مستيقظة. الطفلة سبحت نحوها فورًا وأمسكت بزعنفتها الصغيرة.

ـ بابا؟

نِفرِت حملتها وألصقتها بصدرها.

ـ قريبًا... قريبًا سيعود.

لكن الصوت الذي خرج من صدرها كان بلا أي اقتناع.

خارج النوافذ، كانت أضواء المدينة تزداد خفوتًا مع مرور الساعات. وفي الأعماق البعيدة حول الفيروز، كانت أسماك القرش تقترب أكثر من المعتاد هذه الليلة، كأنها تشم أن الحراسة صارت أضعف، وأن شيئًا ما قد انكسر في قلب المدينة.

ونِفرِت جلست في الظلام تمسك ابنتها، وتحدق في الفتحة التي كان زوسر يدخل منها كل مساء.

والفتحة ظلت فارغة.

الفصل السادس عشر

الشعور بالذنب

الغرفة كانت مظلمة إلا من ضوء المصباح الصغير على الطاولة. فتحي يجلس منذ ساعات أمام الدفتر المفتوح، القلم في يده لا يتحرك إلا قليلاً. خارج الشباك، بحيرة قارون سوداء وساكنة تحت نجوم باهتة.

كتب ثم شطب، ثم كتب مرة أخرى:

«المخلوق الذي ظهر في بحيرة قارون يوم... ليس حيوانًا بحريًا معروفًا. الرداء الواقي الذي يغطي جسمه مصنوع من مادة مركبة غير مألوفة، مصممة على الأرجح لتحمل فروق الضغط الكبيرة. العينان تدلان على مستوى عالٍ من الإدراك. السلوك قبل إطلاق النار كان غير عدائي...»

توقف.

الكلمات كانت جافة و علمية، لكنها لا تقول الحقيقة التي يشعر بها في صدره.

داليا استيقظت من النوم الخفيف ونظرت إليه من السرير.

ـ لسه ما نمتش؟

ـ مش قادر.

قامت وجلست على حافة السرير مقابله.

ـ بتكتب تقرير؟

ـ بحاول. بس كل ما أكتب أحس إن الكلام خيانة.

ـ خيانة لمين؟

فتحي رفع عينيه إليها. في الضوء الخافت كان وجهه يبدو أكبر سنًا مما هو عليه.

ـ للمخلوق ده. إحنا قتلناه. واحد من الصيادين ضغط على الزناد، بس إحنا كلنا كنا هناك. إحنا اللي خلقنا الجو اللي خلا الرصاصة تخرج.

داليا اقتربت ووضعت يدها على يده.

ـ أنت حاولت تمنعهم. صرخت.

ـ متأخر. زي كل حاجة في القصة دي... جيت متأخر.

أعاد النظر إلى الدفتر.

ـ كان رسو ل. أنا حاسس بكده. مش وحش طالع ياكل الناس. كان بيحاول يقول حاجة، أو يطلب حاجة. وإحنا ردينا عليه برصاصة.

الصمت ملأ الغرفة. من بعيد جاء صوت كلب ينبح مرة واحدة ثم سكت.

داليا قالت بهدوء:

ـ طيب... هتعمل إيه دلوقتي؟

ـ هكمل التقرير. وهحاول أرسله لناس في الجامعة أو في هيئة علوم البحار. بس عارف النتيجة من دلوقتي: هيقولوا مبالغات، أو هلوسة جماعية، أو على أحسن تقدير «حالة تحتاج مزيدًا من الدراسة» وبعدين يتقفل الملف.

ـ وممكن ترجع للبحيرة؟ تبحث عن آثار تانية؟

فتحي أغمض عينيه لحظة.

ـ ممكن. بس الخوف الحقيقي مش إن مالقوش حاجة. الخوف إن ألاقي. وأكتشف إن في تانيين زيه بيستنوا رد ما وصلش، أو إننا قتلنا آخر واحد فيهم.

قام من الكرسي ووقف أمام الشباك. البحيرة كانت تبدو كأنها بلا قاع.

همس بصوت يكاد لا يُسمع:

ـ لقد قتلنا رسو ل سلام.

داليا جاءت ووقفت بجانبه. لم تحاول أن ترد أو تهدئ بكلام جاهز. فقط أسندت رأسها إلى كتفه ونظرا معًا إلى الماء الأسود.

بعد وقت طويل قال فتحي:

ـ بكرة هروح المرفأ بدري. عايز أشوف الجثة قبل ما ياخدوها أو يدفنوها أو يعملوا فيها أي حاجة. لو فضلت أي أجزاء من الرداء... لازم أحافظ عليها.

ـ هروح معاك.

ـ لأ. المرة دي لوحدي. مش عايزك تشوفي المنظر تاني.

داليا لم تجادل. عرفت من نبرة صوته أنه اتخذ قراره.

عندما عاد إلى الكرسي وأمسك القلم من جديد، كتب في أعلى الصفحة جملة واحدة لم يشطبها:

«نحن لا نستحق أن يأتينا أحد من الأعماق.»

ثم أطفأ المصباح، وجلس في الظلام يسمع صوت الماء البعيد وهو يضرب الشاطئ بانتظام يشبه نبضات قلب ميت.

الفصل السابع عشر

الجثة

في الصباح الباكر، وصلت سيارتان حكوميتان إلى الشاطئ الشمالي.

رجال بملابس رسمية نزلوا منها، معهم عمال يحملون أغطية بلاستيكية سميكة وحبالًا. الجثة كانت لا تزال طافية في الماء الضحل، وقد جذبها التيار أقرب إلى الصخور. بعض السكان المحليين يقفون على مسافة، يتحدثون همسًا ويصورون بهواتفهم.

فتحي وصل وهو يلهث تقريبًا. كان قد استيقظ قبل الفجر وقطع المسافة من الفندق بسرعة. عندما رأى الرجال يحيطون بالجثة، أسرع نحوهم.

ـ انتظروا! أنا دكتور فتحي عاطف، متخصص في علم الحيوان. لازم أفحص الجثة قبل ما تتنقل.

أحد الموظفين، رجل في الأربعين يرتدي نظارة طبية، التفت إليه بهدوء رسمي.

ـ تمام يا دكتور. بس التعليمات إن الجثة تتحال إلى مديرية الطب البيطري أولًا، وبعدين لو احتجنا رأي متخصص هنتصل بالجهات المعنية.

ـ دي مش حالة بيطرية عادية. المخلوق ده...

ـ نقدر نسجل ملاحظاتك بعدين. دلوقتي من فضلك ابتعد عشان نشتغل.

فتحي حاول أن يقترب أكثر، لكن عاملين وقفا في طريقه بهدوء حازم. رأى الرجال يلفون الجثة بالبلاستيك الأسود بصعوبة بسبب الحجم. الرأس اختفى أولًا، ثم الرقبة الطويلة، ثم باقي الجسم. عندما رفعوها، سالت بقايا ماء مختلط بمادة لزجة على الرمال.

حاول فتحي مرة أخيرة:

ـ على الأقل خلوني آخذ عينات من الرداء الواقي. المادة دي مش طبيعية.

الموظف بالنظارة هز رأسه.

ـ كل حاجة هتتفحص في المعامل المختصة. لو سمحت متأخرناش.

السيارات تحركت بعد نصف ساعة، والجثة ملفوفة في الخلف كأنها شحنة عادية. السكان بدأوا يتفرقون. فتحي ظل واقفًا على الشاطئ يحدق في الأثر الذي تركته على الرمل: بقعة مبللة كبيرة وبعض القشور أو القطع الصغيرة الشفافة التي سقطت من الرداء.

انحنى وجمع قطعتين صغيرتين بحذر وضعهما في منديل نظيف. كانت صلبة ومرنة في الوقت نفسه، ولها لمعان داخلي خافت.

داليا وصلت متأخرة قليلًا، رأت السيارات وهي تبتعد.

ـ أخذوها؟

ـ أيوه. ومافيش حد سمع لي.

ـ طيب... دلوقتي؟

فتحي نظر إلى البحيرة. السطح كان هادئًا تحت شمس الصباح، كأنه يغسل آثار ما حدث بالأمس.

ـ هدور بنفسي. لو في مدخل أو آثار تانية أو أي دليل... لازم ألاقيه قبل ما كله يختفي أو يتنسى.

عاد إلى الفندق فقط ليأخذ معدات الغطس البسيطة التي كان قد أحضرها «احتياطيًا» للإجازة: قناع، زعانف، وأنبوبة تنفس قصيرة. داليا حاولت أن تمنعه.

ـ لوحدك؟ المية عميقة في حتات، والتيارات...

ـ مش هنزل بعيد. بس قرب الشاطئ والمكان اللي ظهر فيه. لو في حاجة على القاع الضحل هتشوفها.

نزل إلى الماء بعد ساعة. البرودة النسبية لسعت جلده في البداية. سبح ببطء فوق القاع الرملي والطيني، يبحث عن أي شيء غير طبيعي: قطعة رداء، أداة، أثر حركة غير عادية.

لم يجد شيئًا واضحًا في الساعة الأولى. فقط أسماك صغيرة ونباتات مائية ورمال.

ثم، على بعد حوالي أربعين مترًا من الشاطئ، رأى شيئًا يلمع بين الأعشاب.

غاص وأمسك به.

كان قطعة أخرى من المادة الشفافة نفسها، أكبر قليلًا هذه المرة، وما زالت تحمل بقايا المادة اللزجة. وضعها في كيس بلاستيكي صغير ربطه في معصمه.

عندما صعد إلى السطح وتنفس بعمق، نظر حوله.

البحيرة بدت فارغة وهادئة مرة أخرى.

لكنه عرف الآن أن ما حدث لم يكن حلمًا ولا هلوسة جماعية.

وكان يعرف أيضًا أن السلطات لن تأخذ الأمر بالجدية التي يستحقها.

سبح عائدًا إلى الشاطئ، القطعة الشفافة تضغط على معصمه كأنها تذكير صامت بما فقدوه... وبما قد يكون لا يزال ينتظر في الأعماق.

الفصل الثامن عشر

الانتظار

مرّ سبعة أيام كاملة.

في قاعة المجلس الرئاسي، لم يعد هناك همس ولا جدال مرتفع. فقط صمت كثيف يضغط على الجميع مثل عمق إضافي. الرئيس وقف على المنصة، جلده بدا أكثر ترهلاً، وعيناه محمرتين.

قال بصوت منخفض لكنه واضح:

ـ زوسر لم يعد. والحراس الذين رافقوه إلى مدخل النفق لم يروا أي إشارة منه منذ أن دخل. نعتبره... في عداد المفقودين.

الكلمة سقطت في القاعة كال حجر.

نِفرِت كانت واقفة في الصف الأول هذه المرة. توت ليست معها؛ تركتها مع جارة. سمعت الحكم ولم تتحرك.

الرئيس واصل:

ـ أمامنا خياران. إما أن نغلق النفق نهائيًا وننسى عالم الأقزام، ونحاول الصمود بما تبقى لنا من مزارع ودفاعات... أو نرسل رسو لًا ثانيًا.

صوت رافض ارتفع فورًا من عدة جهات:

ـ لا!

ـ يكفي موتًا!

ـ لن نرسل أحدًا آخر!

الرئيس انتظر حتى هدأت الأصوات.

ـ أعلم الخوف. لكن بدون مساعدة من فوق... لن نصمد أكثر من مواسم قليلة. المزارع تتناقص، والقرش يقترب أكثر كل ليلة.

شيخ كبير سبح إلى الأمام وقال بمرارة:

ـ وكم رسو لًا نحتاج حتى نقتنع أنهم يقتلوننا بمجرد أن نظهر؟ زوسر كان أفضلنا. إذا فشل هو... فلن ينجح أحد.

همهمة موافقة قوية ملأت القاعة. الرئيس بدا كأنه سيخسر السيطرة على الاجتماع.

ثم سمعت نِفرِت صوتها هي يخرج قبل أن تفكر:

ـ أنا أذهب.

كل الرؤوس التفتت إليها.

ابتعدت عن الصف وسبحت حتى وقفت أمام المنصة مباشرة. صوتها كان هادئًا وثابتًا:

ـ أنا زوجته. أعرف الرداء. أعرف الطريق إلى النفق. وإذا كان هناك أي أمل في أنه لا يزال حيًا، أو في أن أحدًا آخر يستطيع إكمال ما بدأه... فأنا الأحق بذلك.

ضجة عالية اندلعت. بعضهم صاح بأنها مجنونة، وبعضهم قال إنها ثكلى ولا تفكر بعقل، وبعض الأمهات صاحن أنها أم ولديها طفلة.

الرئيس رفع يديه بصعوبة.

ـ نِفرِت... أنتِ تعرفين مخاطر الرحلة. والطفل...

ـ توت ستكون في أيدٍ أمينة. أما أنا... فقد انتظرت سبعة أيام. لن أنتظر حتى يأتي دورنا في المجاعة أو تحت أسنان القرش ونحن ننتظر معجزة من فوق.

نظرت إلى الوجوه من حولها واحدًا واحدًا.

ـ زوسر ذهب لأنه كان يؤمن أن هناك أملًا. إذا قتلوه... فأنا أريد أن أعرف لماذا. وإذا لم يقتلوه وما زال هناك فرصة للحديث... فأنا سأحاول. لن أرسل أحدًا آخر أمامي.

الصمت عاد، لكنه كان مختلفًا هذه المرة. صمت من يحسبون الثمن.

الرئيس نظر إليها وقتًا طويلًا، ثم أخفض رأسه قليلًا.

ـ سنناقش الأمر. غدًا نعطي قرارًا نهائيًا.

نِفرِت أومأت ولم تضف شيئًا. عادت إلى مكانها ثم خرجت من القاعة وسط نظرات متباينة: بعضها إعجاب، بعضها شفقة، وبعضها خوف من أن تكون كلمتُها قد فتحت بابًا لا يمكن إغلاقه مرة أخرى.

في الطريق إلى المنزل، شعرت أن الماء أثقل من المعتاد.

وعندما فتحت باب بيتها ورأت توت تسبح نحوها مسرعة، ركعت واحتضنتها بقوة، ووجهها غارق في عنق الطفلة الصغيرة حتى لا ترى أحد دموعها التي اختلطت بالماء.

الفصل التاسع عشر

الدليل

في غرفة الفندق، أغلق فتحي الستائر تمامًا وحول الطاولة الصغيرة إلى مختبر مؤقت.

القطع الثلاث التي جمعها من الشاطئ والقاع الضحل كانت ممدودة أمامه على منشفة بيضاء نظيفة. استخدم العدسة المكبرة التي يحملها دائمًا في حقيبة المعدات، ثم مصباحًا قويًا بعدسة زرقاء.

المادة كانت شفافة في طبقات رقيقة، وكثيفة في الطبقات الأعمق. عند تكسير حافة صغيرة بأداة معدنية، لم تنكسر كالبلاستيك العادي ولا كالزجاج. تشققت في خطوط مستقيمة دقيقة، وأصدرت صوتًا خافتًا يشبه احتكاك الصدف.

وضع قطعة صغيرة في كوب من الماء المالح الذي أحضره من البحيرة. لم تذب. لم تتغير. المادة اللزجة المتبقية على سطحها تُشكل طبقة رقيقة تحميها من الجفاف السريع.

ثم فعل شيئًا لم يكن يخطط له في البداية: أخرج ولاعة صغيرة وأقرب اللهب بحذر شديد من طرف إحدى القطع.

المادة لم تشتعل. لم تذِب بسهولة. فقط اسودّت قليلاً عند درجة حرارة عالية، ثم عادت صلبة بعد أن أبعد النار.

فتحي جلس إلى الخلف في الكرسي.

همس:

ـ مش من هنا...

كتب في دفتره بسرعة:

«مادة مركبة غير معروفة. مقاومة للحرارة والملوحة والضغط على الأرجح. طبقات متعددة: خارجية صلبة شفافة، داخلية مرنة مع مادة حافظة لزجة. لا تشبه أي بوليمر أو مركّب بحري طبيعي أعرفه. ولا تشبه أي بدلة غطس بشرية حالية.»

توقف عن الكتابة ونظر إلى القطعة الأكبر.

إذا كان الرداء مصنوعًا بهذه المادة... فإن من صممه يعرف ما يفعله. ويعرف فرق الضغط بين الأعماق والسطح. ويعرف كيف يحمي كائنًا غير مهيأ للهواء.

وهذا يعني شيئًا واحدًا فقط: حضارة.

قام وفتح الشباك. الهواء الساخن اندفع إلى الغرفة. البحيرة كانت تلمع تحت شمس العصر كأنها لا تحمل أي سر.

داليا دخلت في هذه اللحظة، رأت القطع على الطاولة والدفتر المفتوح.

ـ لقيت حاجة؟

فتحي أشار إلى القطع دون أن يلتفت.

ـ دليل. مش قاطع بنسبة مية في المية، بس أقوى من أي حكاية صيادين. المادة دي مش موجودة في أي مرجع أعرفه. ولو بعتها لمعمل متخصص هياخدوا شهور عشان يعترفوا إنها مش طبيعية... لو اعترفوا أصلًا.

ـ وانت هتعمل إيه؟

ـ هنزل أعمق. المرة اللي فاتت فضلت في الضحل. المرة دي لازم أوصل للمناطق اللي ممكن يكون فيها مدخل أو آثار أوضح. لو في نفق أو كهف أو أي علامة...

داليا اقتربت ووضعت يدها على كتفه.

ـ لوحدك تاني؟

ـ في البداية نعم. لو لقيت حاجة تستاهل، ساعتها نفكر في ناس تانيين. بس دلوقتي أي كلام رسمي هيتحط في درج ويتنسي. الدليل الوحيد اللي عندي هو اللي في إيدي دي... واللي ممكن يبقى تحت المية لسه.

نظر إلى القطعة الشفافة مرة أخيرة قبل أن يلفها بعناية في ورق سميك.

ـ زوسر... أو مهما كان اسمه... ما جاءش صدفة. وكان لابس حاجة تحميه عشان يوصل لنا. وإحنا قتلناه قبل ما نسمع منه كلمة.

أخرج معدات الغطس من الحقيبة وبدأ يفحصها بهدوء مركّز.

خارج الشباك، كانت بحيرة قارون راقدة في ضوء العصر، هادئة وغامضة، كأنها تنتظر من يجرؤ على الغوص أعمق هذه المرة.

الفصل العشرون

الغطسة

اختار فتحي ساعة قبل الغروب، حين يخف الزحام على الشاطئ وتبدأ حرارة النهار في الانكسار.

ارتدى بدلة الغطس الخفيفة، وثبت القناع، ووضع أنبوبة التنفس، وعلق حزام الأثقال البسيط. داليا وقفت على الشاطئ تراقبه، وجهها متوتر رغم أنها لم تحاول منعه هذه المرة.

ـ متتأخرش. ولو حسّيت بأي تيار غريب اطلع فورًا.

ـ هفضل قريب من المنطقة اللي ظهر فيها. مش هبعد أكتر من مية متر.

دخل الماء ببطء. البرودة لسعت ساقيه ثم خصره ثم صدره. غطس وجهه وجرب التنفس عبر الأنبوبة. ثم دفع جسمه إلى الأمام وسبح نحو الوسط بضربات هادئة.

القاع تحتها كان رمليًا في البداية، ثم تحول إلى طيني مع أعشاب مائية طويلة تتمايل. الرؤية محدودة بسبب العكارة الخفيفة، لكنها كافية. كل بضعة أمتار كان يتوقف ويمسح القاع بعينيه، يبحث عن أي شيء غير طبيعي: لمعان، شكل هندسي، اختلاف في اللون.

بعد حوالي عشرين دقيقة، وصل إلى المنطقة التي يقدر أنها كانت تحت مكان ظهور زوسر.

هنا تغير القاع.

الصخور بدأت تظهر، كبيرة ومغطاة بطحالب داكنة. بينها شقوق وفجوات. فتحي غاص أقرب، يمسك بصخرة ليثبت نفسه ضد التيار الخفيف.

ثم رآه.

بين صخرتين كبيرتين، كان هناك فتحة شبه دائرية، أوسع من جسد الإنسان بقليل. حوافها ليست خشنة كالكهوف الطبيعية تمامًا. بدت ملساء في بعض المواضع، كأنها نُحتت أو تآكلت بطريقة منتظمة. ومن داخلها كان يخرج تيار ماء أبرد وأوضح قليلاً من الماء المحيط.

قلب فتحي تسارع.

سبح نحو الفتحة بحذر. أخرج المصباح الصغير المقاوم للماء ووجهه إلى الداخل. الضوء كشف ممرًا صخريًا يمتد إلى الأسفل وإلى الداخل، يختفي بعد أمتار قليلة في العتمة. الجدران الداخلية بدت أكثر انتظامًا كلما تعمقت النظرة.

حاول الدخول برأسه أولًا.

الضغط تغير فورًا. أذناه آلمتاه بشدة. الأنبوبة لم تعد كافية. الهواء صار أصعب. شعر بجسمه يُدفع للخلف بسبب التيار الداخلي المعاكس.

تراجع وأعاد المحاولة مرة واحدة فقط، ثم اضطر للصعود إلى السطح وهو يلهث.

خلع القناع وتنفس الهواء بعمق. الشمس كانت قد لمست الأفق. داليا تبدو صغيرة على الشاطئ، تلوح له بيديها.

سبح عائدًا ببطء. كل ضربة ذراع كانت مصحوبة بفكر واحد:

المدخل موجود.

ليس كهفًا عشوائيًا. شيء يؤدي إلى مكان أعمق... وربما إلى حيث جاء زوسر.

عندما وصل إلى الشاطئ وخلع الزعانف، كانت يداه ترتجفان قليلًا من البرد والجهد. داليا اقتربت بسرعة.

ـ لقيت حاجة؟

فتحي نظر إليها، الماء يسيل من شعره على وجهه، وعيناه تلمعان بشيء لم يكن فيه منذ أيام.

ـ مدخل. صخري. منتظم أكتر من اللازم. بينزل لتحت. مقدرش أدخل بالمعدات اللي معايا... الضغط والتيار أقوى من إني أقاومهم بالأنبوبة دي.

ـ يعني؟

ـ يعني الرداء اللي كان لابسه المخلوق ماكانش للزينة. كان ضروري. والطريق اللي جه منه لسه مفتوح.

جلس على الرمل، ينظر إلى البحيرة التي بدأت تكتسي بلون الغروب البرتقالي الداكن.

ـ دلوقتي بقى عندي دليلين: المادة... والمدخل. ومفيش حد هيصدقني بسهولة. بس أنا مش محتاج حد يصدقني دلوقتي.

رفع رأسه إلى داليا.

ـ أنا محتاج أرجع تاني. بمعدات أحسن. وأشوف إلى فين بيؤدي الطريق ده.

داليا جلست بجانبه على الرمل المبلل. لم تقل «لا». فقط أسندت رأسها إلى كتفه ونظرا معًا إلى الماء الذي كان يخفي تحته الآن أكثر من مجرد وحش ميت.

كان يخفي طريقًا.

الفصل الحادي والعشرون

القرار الأخير

في الليلة التالية لقرار المجلس، لم تنتظر نِفرِت الموافقة الرسمية.

عرفت أن الغد سيحمل رفضًا مهذبًا أو تأجيلًا إلى ما لا نهاية. الرؤساء يخشون إرسال المزيد، والسكان يخشون الفقدان. أما هي... فقد نفد خوفها منذ أيام.

انتظرت حتى نامت توت نومًا عميقًا عند الجارة المسنة التي وثقت بها. قبل أن تغادر، لمست جبين الطفلة بجبهتها طويلًا وهمست:

ـ سأعود. أو سأعرف الحقيقة.

ثم سبحت في الظلام نحو الحجرة الخاصة تحت قاعدة التوباز، حيث يُحفظ رداء الضغط الثاني الذي كان قد أُعدّ كاحتياطي.

ثلاثة حراس كانوا ينتظرونها هناك. لم يرسلهم أحد. جاؤوا من تلقاء أنفسهم بعد أن سمعوا كلامها في القاعة. أحدهم كان الجريح الذي رافق زوسر في الرحلة الأولى، ولا يزال كتفه ملفوفًا.

قال لها بصوت منخفض:

ـ لن ندعك تذهبين وحدك. نعرف الطريق. ونعرف كيف نتحرك في المياه الرقيقة أكثر من أي أحد آخر.

نِفرِت نظرت إليهم واحدًا واحدًا. لم ترفض.

ارتدوا أربعةً معًا داخل المغارة. الرداء كان أثقل عليها مما توقعت، والمادة اللزجة باردة في البداية. عندما أُغلق غطاء الرأس، سمعت تنفسها فقط داخل الفراغ الضيق.

سبحوا عبر النفق في صمت تام. التيار المعاكس كان أقوى هذه المرة، كأن الأعماق نفسها تحاول إبقاءهم. عندما وصلوا إلى قاعدة التوباز، توقفوا لحظة أخيرة.

الحارس الجريح قال:

ـ من هنا كل واحد مسؤول عن نفسه. إذا حدث شيء فوق... نغوص فورًا ونعود إلى هنا. لا بطولات.

نِفرِت أومأت داخل الخوذة.

صعدوا واحدًا بعد الآخر.

الماء الرقيق، ثم السطح.

الليلة كانت مظلمة، القمر محجوب خلف غيوم خفيفة. الهواء البارد ضرب الطبقة الشفافة بقسوة. نِفرِت شعرت بجسمها يحاول أن يتمدد داخل الرداء، تمامًا كما وصفه زوسر في تدريباته الأخيرة. تحملت.

خرجوا إلى وسط بحيرة قارون في صمت شبه كامل. أربعة رؤوس فقط ترتفع فوق السطح ببطء، متباعدة قليلاً حتى لا تبدو ككتلة واحدة مخيفة.

نِفرِت رفعت رأسها أعلى من الآخرين. نظرت إلى الشاطئ المظلم. أضواء قليلة متفرقة. لا حشود هذه المرة. لا صراخ.

همست داخل الخوذة، صوتها لا يسمعه أحد إلا هي:

ـ أنا هنا يا زوسر... أين أنت؟

الماء حولهم كان أسود وساكن. لا أثر لجسد، لا أثر لدم، لا أثر لأي شيء حدث قبل أيام.

أحد الحراس اقترب منها بالإشارة المتفق عليها: «نبقى قليلًا ثم نعود».

لكن نِفرِت هزت رأسها ببطء.

أشارت نحو الشاطئ الشمالي، حيث بدت أضواء فندق بعيدة.

قررت أن تقترب أكثر.

سبحوا ببطء شديد، لا يرفعون من أجسامهم إلا الحد الأدنى. كلما اقتربوا، صارت التفاصيل أوضح: أشجار، مبانٍ منخفضة، وجسر قديم.

وفجأة... لمحت حركة على الشاطئ.

شخص واحد يقف وحيدًا قرب الماء، يحمل مصباحًا يدويًا ضعيفًا ويوجهه أحيانًا نحو السطح.

نِفرِت توقفت.

شعرت بقلبها يدق بقوة داخل الرداء.

هل هو أحد الذين قتلوه؟
أم أحد آخر؟

رفعت رأسها قليلاً جدًا فوق السطح، بما يكفي فقط لترى أفضل.

المصباح تحرك باتجاهها.

الضوء الأبيض الضعيف لمس الماء على بعد أمتار قليلة منها.

والشخص على الشاطئ تجمد في مكانه.

الفصل الثاني والعشرون
اللقاء الثاني

فتحي لم يكن ينام كثيرًا هذه الأيام.

بعد الغطسة، صار يقضي ساعات طويلة على الشاطئ ليلًا، مصباح يدوي ضعيف في يده، يحدق في الماء الأسود كأنه ينتظر اعتذارًا أو معجزة. داليا كانت تطلب منه أن يرتاح، لكنه كان يقول لها: «لو في حد تاني هيحاول... هيكون بالليل».

في تلك الليلة، كان يقف قرب الجسر القديم تمامًا حين لمح الاضطراب.

أربع نقاط داكنة على السطح، متباعدة، تتحرك ببطء شديد نحو الشاطئ الشمالي. ليست أسماكًا. الحركة كانت واعية جدًا، حذرة جدًا.

رفع المصباح وصوبه نحو أقرب نقطة.

الضوء لمس الماء، ثم لمس شيئًا شفافًا فوقه.

رقبة. ورأس.

لكنه هذه المرة لم يصرخ، ولم يركض. قلبه تسارع بعنف، لكنه ثبت مكانه. أطفأ المصباح فورًا حتى لا يفزعهم، ثم أعاد إضاءته على أقل درجة، ووجهه نحو الأرض لا نحوهم.

رفع يده اليمنى ببطء عاليًا فوق رأسه، ثم خفضها. ثم رفعها مرة أخرى.

إشارة بسيطة: أنا هنا. لست أعدو. لست أحمل سلاحًا.

على السطح، توقفت النقاط الأربع.

نِفرِت كانت في المقدمة. رأت الضوء الضعيف، ورأت الرجل الوحيد على الشاطئ. رأت يده ترتفع وتنخفض ببطء. لا صراخ. لا حشد. لا صوت معدني يشبه الرصاصة.

أشارت للحراس الثلاثة خلفها أن يبقوا حيث هم. ثم دفعت جسمها إلى الأمام مترين إضافيين فقط.

رفعت إحدى يديها فوق السطح، ببطء شديد، تمامًا كما فعل هو.

فتحي رأى الحركة. شعرت قشعريرة تسري في ظهره كله. أعاد الإشارة نفسها. ثم وضع المصباح على الصخور بجانبه، موجهًا ضوءه نحو السماء حتى يكون مرئيًا دون أن يعميهم، ورفع كلتا يديه مفتوحتين أمامه.

«لا سلاح».

نِفرِت فهمت النية إن لم تفهم المعنى. اقتربت أكثر حتى صارت على مسافة ثلاثين مترًا تقريبًا. رفعت رأسها أعلى قليلاً. الطبقة الشفافة كانت تلمع تحت الضوء الخافت.

فتحي جثا على ركبتيه عند حافة الماء حتى يبدو أصغر وأقل تهديدًا. ثم فعل شيئًا لم يخطط له: وضع يده على صدره، ثم مدها نحوها في الهواء.

«أنا... وأنت».

نِفرِت ظلت ساكنة لحظة طويلة. خلفها كان الحراس يتحركون بقلق، لكن إشارة منها أبقتهم في أماكنهم.

ثم، ببطء شديد، وضعت هي الأخرى يدها على المكان الذي يقابل الصدر داخل الرداء، ومدتها نحوه.

الماء كان هادئًا بينهما. لا صوت إلا صوت التنفس داخل الرداء، وصوت قلب فتحي الذي كان يسمعه في أذنيه.

فتحي شعر أن عينيه تحرقتا. همس بصوت لا يكاد يُسمع:

ـ أنتِ... مش هو. بس منكم. صح؟

بالطبع لم تسمعه. لكنها رأت فمه يتحرك، ورأت أن الرجل لا يهرب ولا يصرخ.

أشارت ببطء نحو الماء ثم نحو نفسها، ثم نحو الأفق البعيد خلفها... ثم خفضت رأسها قليلاً في حركة تشبه الحزن.

فتحي فهم بما يكفي.

رفع يده مرة أخرى، هذه المرة مشيرًا إلى نفسه ثم إلى الماء ثم إليها، كأنه يقول: «أنا أعرف. أنا آسف».

ظلا كذلك دقائق طويلة: رجل جاثٍ على الشاطئ، ومخلوقة نصفها خارج الماء، يتبادلان إشارات بدائية في الظلام، بينما العالم البشري كله نائم ولا يعرف أن لقاءً مستحيلًا يحدث على حافة بحيرة قارون.

ثم أشار أحد الحراس من الخلف إشارة تحذير سريعة. أضواء سيارة بعيدة كانت تتحرك على الطريق الترابي.

نِفرِت خفضت رأسها مرة أخيرة نحو فتحي، كأنها تحية أو وداع. ثم غاصت ببطء مع الآخرين.

السطح عاد أسود وهادئًا في ثوانٍ.

فتحي ظل جاثيًا على الصخور وقتًا أطول بكثير مما ينبغي. المصباح لا يزال مضيئًا بجانبه، ويداه ترتعشان قليلًا.

هذه المرة لم يُقتل أحد.

وهذه المرة... فهم كلاهما شيئًا من الآخر.

الفصل الثالث والعشرون

التفاهم الجزئي

خلال الليالي التالية، تكرر اللقاء ثلاث مرات.

في كل مرة كان فتحي يأتي وحده إلى الشاطئ نفسه، وفي كل مرة كانت نِفرِت تظهر مع حارس واحد أو اثنين فقط، أبعد قليلاً عن الشاطئ من المرة الأولى. الإشارات صارت أوضح تدريجيًا. فتحي أحضر لوحًا أبيض صغيرًا وقلمًا عريضًا مقاومًا للماء. رسم دوائر، وأسهم، وشكل بحيرة، ثم شكل أجسامًا طويلة تحتها. نِفرِت راقبت من بعيد، ثم اقتربت أكثر في الليلة الثالثة وأشارت إلى الرسم ثم إلى صدرها ثم إلى الأفق المائي خلفها مرارًا.

فهم فتحي الرسالة الأساسية:

نحن كثيرون.

نحن تحت.

نحن في خطر.

في الليلة الرابعة رسم شكل سمكة قرش كبيرة وأسنانًا، ثم رسم الأجسام الطويلة وهي تبتعد أو تسقط. نِفرِت حرك رأسها حركة تشبه الإثبات، ثم أشارت إلى جسدها بهبوط بطيء كأنها تقول: نموت.

عندما عاد إلى الفندق في تلك الليلة، كان وجهه شاحبًا. داليا كانت تنتظره.

ـ فهمت حاجة جديدة؟

ـ فهمت إن اللي اتقتل ماكانش فرد ضال. كان من حضارة كاملة. وزي ما أنا شايف... الحضارة دي بتموت.

في الصباح التالي سافر إلى القاهرة.

حمل معه القطع الشفافة، والصور التي التقطها بهاتفه في الليالي (رغم أنها كانت مهتزة وغامضة)، وتقريرًا مكتوبًا بعناية يشرح كل شيء من الظهور الأول حتى الإشارات الأخيرة. زار زميلين قديمين في كلية العلوم، ثم موظفًا في هيئة حماية البيئة، ثم صحفيًا علميًا كان يعرفه من سنوات.

الردود جاءت متشابهة بدرجات مختلفة من الأدب:

«مثير للاهتمام لكن يحتاج أدلة أقوى...»

«ممكن تكون ظاهرة طبيعية نادرة أو خدعة...»

«بلاش نفتح موضوع يخوف السياح في البحيرة...»

«سيب العينات عندنا ونشوف...»

أحدهم فقط، أستاذ متقاعد في علم الأحياء البحرية، نظر إلى القطعة الشفافة وقتًا طويلًا وقال بهدوء:

ـ لو الكلام ده صح... يبقى إحنا قدام أكبر اكتشاف في تاريخنا. ولو غلط... يبقى أنت محتاج إجازة أطول. في الحالتين مش هقدر أساعدك رسميًا. الدنيا مش مستعدة تسمع الكلام ده دلوقتي.

فتحي عاد إلى الفيوم بعد يومين وهو يحمل الرفض المهذب كله على كتفيه.

في الليلة التالية وقف على الشاطئ كالعادة. نِفرِت ظهرت. هذه المرة رفع يديه ثم خفضهما في حركة يأس واضحة، ثم أشار إلى المدينة البعيدة خلفه وحرك رأسه بالنفي.

نِفرِت فهمت.

ظلت ساكنة وقتًا طويلًا. ثم اقتربت أكثر من أي مرة سابقة، حتى صارت على بعد خمسة عشر مترًا فقط. رفعت يدها ووضعته على صدرها، ثم مدته نحوه، ثم أشارت إلى الأسفل... ثم إلى السماء... ثم رسمت في الهواء دائرة بطيئة كأنها تقول: دورة، وقت، انتظار.

بعد ذلك غاصت ولم تعد تلك الليلة.

فتحي بقي على الصخور حتى الفجر.

كان يعرف أنها لن تأتي كل ليلة بعد الآن. الأمل الذي حملته معها كان ضعيفًا، وهي أعادته إليه أضعف مما كان.

ومع ذلك، في مكان ما تحت الماء، كانت نِفرِت تسبح عائدة نحو النفق مع الحراس، تحمل في صدرها صورتين متناقضتين: صورة الرجل الذي حاول أن يفهم، وصورة العالم فوق السطح الذي يرفض أن يصدق.

والصورتان معًا لم تكونا كافيتين لإنقاذ أحد.

الفصل الرابع والعشرون

الخاتمة

(نسخة معدّلة: أمل ونجاة)

مرت تسعة أشهر.

في مدينة الفيروز، كان الوضع قد بلغ الحافة. المزارع الأخيرة تتعرض لهجمات متكررة، وعدد السكان انخفض إلى أقل من ثلاثمائة وخمسين. نِفرِت صارت تقود إحدى مجموعات الحراسة بنفسها. توت كبرت وأصبحت تسبح بجانبها في الدوريات القصيرة قرب المدينة، عيناها الواسعتان تراقبان كل ظل متحرك.

الليلة التي تغير فيها كل شيء لم تكن مختلفة في البداية.

زوسر لم يعد، والنفق أُغلق بالحجارة منذ شهور، والأمل في عالم الأقزام مات تمامًا بعد أن عادت نِفرِت من اللقاءات الأخيرة وهي تحمل معها الحقيقة المرة: فوق السطح هناك من يسمع... لكن العالم كله لا يريد أن يسمع.

ثم جاء التيار الغريب.

في فجر أحد الأيام، شعر الحراس عند الحدود الشمالية باهتزازات منخفضة وعميقة لم يعرفوها من قبل. تبعوها بحذر. على بعد مسافة طويلة من المدينة، في منطقة كانت مهجورة منذ سقوط الزبرجد، اكتشفوا شيئًا مستحيلًا:

فقاعات هوائية كبيرة تصعد من شقوق في القاع.

وماء أعذب قليلاً يختلط بالماء المالح.

وأهم من ذلك... نباتات بلانكتون جديدة تنمو بسرعة غير طبيعية حول الشقوق، كأنها وجدت مصدرًا غذائيًا جديدًا.

نِفرِت وصلت إلى المكان بنفسها. لمست النباتات، تذوقت الماء، ثم رفعت رأسها نحو الأعلى... نحو الاتجاه الذي يأتي منه التيار الخفيف المحمل بآثار غريبة.

فهمت.

فوق السطح، كان فتحي قد عاد إلى البحيرة للمرة الأخيرة.

بعد أن يئس من المجلات والهيئات، فعل شيئًا واحدًا فقط لم يخبر به أحدًا إلا داليا.

في إحدى الليالي، حمل معه أكياسًا كبيرة من أملاح مغذية خاصة وأسمدة بحرية مركزة كان قد حصل عليها بصعوبة من معارف في أبحاث الاستزراع السمكي. غاص قرب المدخل الصخري الذي اكتشفه سابقًا، وصب المحتويات ببطء داخل التيار الذي ينزل إلى الأعماق. كرر ذلك ثلاث ليالٍ متتالية، بكميات محسوبة حتى لا تسمم الماء.

لم يكن يعرف إن كان ذلك سيصل.

لم يكن يعرف إن كان أحد لا يزال حيًا ليستفيد.

كان فقط يرفض أن يكون آخر ما فعله تجاههم هو الوقوف متفرجًا على موتهم.

بعد ذلك غادر البحيرة ولم يعد.

تحت الماء، انتشرت النباتات الجديدة خلال أسابيع. ثم أشهر. المزارع القديمة بدأت تتعافى ببطء حول المصدر الجديد. أسماك القرش التي كانت تقترب من المجاعة صارت تجد طعامًا في المناطق البعيدة، فقلت هجماتها على المدينة.

لم يكن خلاصًا كاملًا.

لم يكن معجزة.

لكنه كان فرصة.

نِفرِت وقفت ذات مساء على حافة المزرعة الجديدة، وتوت تسبح حولها في دوائر سعيدة. الضوء الفسفوري كان لا يزال خافتًا، لكن المدينة لم تعد تغرق في الظلام التام.

همست نِفرِت لنفسها، وهي تنظر إلى الأعلى نحو السطح البعيد الذي لم تعد تصعد إليه:

ـ شكرًا... أيًا كنت.

ثم التفتت إلى ابنتها وابتسمت لأول مرة منذ شهور طويلة.

ـ انظري يا توت... النباتات تكبر.

سنبقى.

وبعيدا فوق السطح، في شقة صغيرة في القاهرة، كان فتحي يقرأ خبرًا عابرًا في صفحة داخلية عن «تحسن ملحوظ في جودة المياه والنباتات في أجزاء من بحيرة قارون لأسباب غير مفسرة».

ابتسم نصف ابتسامة حزينة، وطوى الجريدة.

لم يخبر أحدًا.

ولم يعد إلى البحيرة.

لكنه نام تلك الليلة وهو يعرف أن شيئًا ما، في مكان ما تحت الماء، لا يزال يتنفس.

وأن ذلك يكفي.